دراسة في الفكر الإباضي

تأليف

عمر بن الحاج محمد صالح با

(عمر با)

الناشر : مكتبة الاستقامة

الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دراسة في الفكر الإباضي

تأليف
عمر بن الحاج محمد صالح با
(عمر با)

الناشر : مكتبة الاستقامة

قدم له وعلق عليه
أحمد بن سعود السيابي

الإهـــــــداء

الى والدي الروحي . وشيخي الأجل
الحاج عمر بابلي .. دامت فضائله
شـــــيء من الوفاء

ابنكم الروحي وتلميذكم الوفي
عمـــر بن الحاج محمد صالح با
(عمـــــــر با)

تقـــديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه .

وبعد ، فانه ليس من الغريب القول بأن العام الأربعين للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، هو عام كانت الأمة الاسلامية فيه على مفترق الطرق .

فقد تمخضت تلك الحروب أو الفتن ــ ان صح التعبير ــ عن نشوء فرق أو كيانات اسلامية ذات نزعة سياسية أو عمق سياسي بجانب مرئياتها الفكرية والعقائدية والفقهية ولكنها ــ بالطبع ــ تلتقي على مركز واحد وتدور على محور واحد ألا وهو كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، تستخرج كل فرقة منهما مايؤيد وجهة نظرها وتستنبط منهما ماتراه دليلا لصحة رأيها .

والذي يلاحظ في الأمر أن تلك الفرق أو المذاهب التي وجدت في القرن الأول الهجري كانت يغلب عليها الطابع السياسي ، بينما تلك الفرق أو المذاهب التي وجدت في القرن الثاني وما بعده كانت ذات طابع فقهي وعقائدي فقط .

والكتابة في موضوع الفرق والمذاهب الاسلامية أمر شائك وخطير بقدر ماهو ممتع ومفيد أيضا .

أما خطورته فلأن الكتابة فيه تحتاج الى تجرد مطلق من رواسب العصبية المذهبية المقيتة ، تلك العصبية المغرورة المنبنية أو الناشئة عن الجهل أو التجاهل .

أما الشيء الممتع فيه فان الباحث يعرف عن كثب وبعمق ماعند الفرق والمذاهب الاسلامية من آراء واتجاهات وأفكار ومبادىء ليقدم ذلك الى الآخرين في قالب تقييمي وتحليلي لتلك المبادىء والأفكار ، وهو أمر سيتمكن من خلاله من ازالة المفاهيم الخاطئة عن المذاهب الاسلامية التي كانت وليدة الجهل أو الحقد وهو ما عبر عنه المؤلف بقوله : «غير أن المبرر الذي نعتبره أكثر الحاحا لتعريف الناس بالمذهب الأباضي ، هو السعي لازالة فهم تاريخي خاطىء عن هذا المذهب تداوله الكتاب ، وأصبح سائدا في الأوساط العلمية وغير العلمية «التقليدية» وهذا المفهوم يتحمل تبعته كتاب غير دقيقين في كتاباتهم ولا مقدرين مسئولية نحو المادة العلمية التي يقدمونها الى

الجمهور كشيء خالد له دوره في تكوين الفكر البشري» والمؤلف ــ والحق يقال ــ قد تخلّى عن رواسب العصبية المذهبية ــ بصفته مالكيا ــ وتخلّى بروح الصدق والانصاف في كتابته عن الأباضية . وفي نظرته إلى المذاهب الإسلامية الأخرى ــ عرفنا ذلك عنه من ثنايا كتابه الذي بين أيدينا ، ومن حديثه أثناء لقاءاتنا معه ، وهو لا يتوانى في الرد على أولئك المؤلفين والكتّاب الذين كتبوا عن الفرق الإسلامية وأساؤا إساءة بالغة إلى الفرق المخالفة لهم ، وعليهم وزرها ووزر من قال بها . يقول المؤلف في شأن أولئك «والحق أن كتاب المقالات جنوا على التاريخ وجنوا على العلم وجنوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

جنوا على التاريخ لأنهم زوّروه وكتبوا وقائعه على نحو سقيم واعتدوا على قوم أبرياء ــ قلميا ــ وزيّفوا مبادئهم ، وقالوا في السنتهم مالم يقله هؤلاء .

وجنوا على العلم ، لأن كتبهم ــ مع عدم صحة ما ورد فيها وانتفاء الثقة عنها ــ أصبحت مراجع يرجع اليها من يريد الاطلاع على آراء الفرق الاسلامية ، والتزود بمادة علمية منها . والحال أنها خالية من أية مادة علمية .

وجنوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم لمحاولة تفريقها والامعان في تمزيقها» .

وهذا الكتاب ــ دراسة في الفكر الأباضي ــ يدل على اطلاع مؤلفه على المذهب الأباضي فكرا وتاريخا ، وهو يمثل رؤية صحيحة وصادقة على التفتح الفكري لدى المؤلف ولدى الشباب المسلم المثقف الواعي . وربما لم تتضح للمؤلف بعض النقاط أو بعض المفاهيم أثناء استعراضه لنشأة المذهب الأباضي وتطوره الفكري ، الأمر الذي دعانا إلى وضع بعض الملاحظات على الكتاب ، التي سيجدها القارىء مدونة في آخر الكتاب . بيد أن هذا الأمر لم يكن مخلا بالكتاب قط ، اذ أن الكتاب في مجموعه نظرة صادقة الى نشدان الحق واتباعه من مظانه ، واحساس عميق بضرورة الوحدة الاسلامية .

ومؤلف كتاب دراسة في الفكر الأباضي هو الأخ الفاضل الاستاذ عمر محمد صالح با من السنغال ، وهو من قبيلة با المتفرعة من قبيلة الغلاّني ، القبيلة الكبيرة المنتشرة في معظم أقطار غرب أفريقيا .

وقد ولد عمر با في جنوب السنغال وتلقى أول تعليمه بها ، ثم سار الى «مالي» التي كانت المركز الثقافي لغرب أفريقيا ، حيث تلقى هنالك بعض العلوم في اللغة العربية وعلم الدين الاسلامي ، وبعدها انتقل الى الخرطوم فدرس في معهد القضاء سنتين ، ثم انتقل الى لبنان حيث التحق بكلية «أزهر لبنان» وبعد ذلك حصل على

منحة من ايران فدرس في جامعة طهران حيث حصل منها على الشهادة الجامعية .

ثم حصل على منحة من جامعة جواهر لال نهرو في دلهي بالهند لمواصلة دراسته العليا ، فنال منها شهادة الماجستير .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو رسالة تقدم بها المؤلف لنيل درجة الماجستير من الجامعة المذكورة ، وقد حصل بموجبها على الدرجة المشار إليها .

والأخ عمر با ــ بالرغم من حداثة سنه ــ فهو كثير القراءة واسع الاطلاع . وقد أفادته هذه الرحلات والجولات في التعرف كثيرا على جوانب فكرية وأدبية متنوعة ومتعددة ، وهو ما برح راحلا ومتجولا لا يكاد يلقي عصا الترحال في مكان إلا وتراه حملها مرة أخرى إلى مكان آخر .

وهو يجيد العربية إجادة تامة بطلاقة وبفصاحة كما أنه يجيد اللغات الفرنسية والانجليزية والفارسية ، بجانب اللغة المحلية للسنغال .

أحمد بن سعود السيابي
٧ محرم الحرام ١٤٠٦ هـ
٢٢ سبتمبر ١٩٨٥ م
مسقط

تصـــــدير

حتمت الظروف على ، وشاءت الأقدار لي ، أن أضرب في الأرض طالبا للعلم وسائحا في آن معا ، وكنت أول الامر مستاء لوضعي . حيث لم تسمح لي الظروف في أن أعيش في بلادي مستقرا ودارسا فيها . كما قدر الله لغيري من أبناء بلادي ، واستثناهم القدر عن مكابدة صعاب الاغتراب ، وحالفهم الحظ السعيد في تلقى العلم في مسقط رأسهم ، ووسط أهلهم ، بدون أن يتجشموا مشقات الأسفار ، ومتاعب الرحال ، وعناء الغربة ، وويلات مفارقة الأوطان . وفي الشرق ، حيث قصدت مع من قصد لتحصيل العلم ، أرغمتني الظروف أيضا على التنقل في أكثر من بلد لأسباب كثيرة . غير أني سرعان ما بدأت أجد فائدة في أسفاري وتنقلاتي ، حيث أتاحت لي فرصة الاختلاط مع مختلف الشعوب ، وشتى الثقافات ، وأضراب من النحل والملل والأديان والفلسفات ، وعشت عيانا ما كنت أسمعه كقصص وأخبار ، وخابرت مشافهة ما كنت أقرأ وأطالع كحكايات ، فاذا هي فائدة كثيرة ، فاذا هو علم جم ، من الله على به ، في حين كنت اعتقد ، محنة رماني إليها سوء الطالع غير أني — وفي جميع أسفاري — كنت شديد الحرص على الاتصال بالمسلمين حيثما وجدوا ، لأسمع عنهم وأستفيد منهم ، ولم أتقيد بقيود « المذهبية » ، ولم أتأثر قط بدعوتي « الطائفية » وروضت نفسي على عدم القبول لما يقال عن « فرقة » أو « طائفة » حتى أتصل بتلك الفرقة ، وأتعايش معهم ، وأسمع منهم ، وأقرأ لهم ما تيسر ، وأفهمهم كما هم ، حارصا على اقصاء الزائف من العلم والمعلومات عن دماغي قدر الإمكان ، واضعا في عين الاعتبار أن البشر هم ذوو تكوين واحد فلا يمتاز بعضهم عن بعض شيئا ، ولا تعطين فلانا عقلك يحشو فيه ما يشاء من أخبار يسميها المسلمات من حقائق العلم وجواهر المعرفة ، وتظل أنت أسير توجيهاته ومخزن معلوماته ، وسوى القرآن الكريم . فان كل كتاب وقع في يدك فاعلم أن فيه صوابا وخطأ ، ولا تسلم مبدئيا صحة كلام معين من انسان معين ، أو سقم كلام معين من انسان معين ، سوى الانبياء والرسل لما لهم من منازل آلهية . ولما يحيط بهم من عناية ربانية ، غير أن كلام هؤلاء أيضا دخل فيه ما دخل ، وتلاعبت فيه الاهواء . ان أي خبر وصلك افترض وجود نسبة مئوية فيه من الصحة ، وعدم الصحة ، ما عدا تلك

الأخبار التي جاءنا بها الذكر الحكيم . أو ثبت انه قال بها الرسول الأمين ، لأنه لاينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى وأما مهاتراتنا نحن البشر فانها ــ في يقيني ــ ليس لها عند الله وزن . نعم ، فسوف تقرأ منافرات بين الفرق الإسلامية المعترف بها . وحاول دوما ألاّ تفاضل بين المسلمين ولا يغرنك ما يقوله بعضهم على بعض ، فإنها مجرد انطباعات شخصية واجتهادات فردية ليس لها عند الله أى اعتبار لانها مجرد انفعالات صادرة من بشريتنا . وعندما أقول الفرق الاسلامية فلا أقصد تلك التي وجدت في صدر الاسلام وما تلاها بعيد حين كالبهائية والبابو ية والاحمدية أو « القاديانية » ، اذا . خارجة عن تعريفى . فانها لا تحسب في الفرق الإسلامية لانها وان كانت فيها شبهة إسلامية ، إلا أنها حاولت يوما أن تكون دينا جديدا قائما بذاته ومستقلا ، ولكن بتأييد من الإسلام ضمني ، ولكن بشهادة مزورة من الإسلام ، ولكن أن يبنى وجودها الديني والعقائدي على أنقاض الإسلام ، وعلى حساب الإسلام . ولما أعيتها الحيل ولما انكشفت خططها واتضح أمرها فاذا هي تحاول الاختفاء وراء الإسلام ، وتصطنع سلوك الإسلام ، وتظهر بمظهر الإسلام ، إلا أن الإسلام أعظم من أن تحطمه مكائد البهائية بوحي من اليهود أو تشوهه ألاعيب الأحمدية بتشجيع وتوجيه من الانجليز ، وعندما نقول « الفرق الإسلامية » فإننا نقصد تلك الفرق الإسلامية التي تعتبر محمدا رسولها ، ونبيها ، تقر به خاتم الأنبياء والمرسلين ، وتقر بالله ربا ، و بالقرآن كتابا منزها من عند الله ، ولا كتاب بعده سينزل من السماء ، ولا نبي بعد محمد سيرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وأما الخلافات الأخرى فهي قابلة للتأو يل ، لانها مجال للاجتهادات ، لانها نتاج ملابسات معينة .

لقد شاء الله لي أن أولد في بلاد تتمتع بوحدة المذهب حيث ان كل أهل غرب افريقيا من المسلمين مالكيون مذهبا ، وسنيون اعتقادا ، فلم يكن في تلك المنطقة ــ الى وقت قريب ــ أى نزاع ذى طابع ديني . أو طائفي مذهبي ، الا ما يكون من قبل الجهال من العوام ، أو السذج من المتشيخين الذين مانالوا ذرة من العلم ، يتعصبون لهذا الشيخ أو ذاك ، و يفاضلونهم ، في الولاية ، والغوثية والقطبية ، إلى آخر ما هناك من اصطلاحات حشاها الشيخ في أدمغة العوام ، ليلقبوا بها

شيوخهم رغم وجود طوائف صغيرة تسمى نفسها « وهابية » . والملاحظ أخيرا ان شبكات القاديانية بدأت تعيد بعض الضحايا من الذين لايعلمون من الاسلام وتاريخه وحقيقته الا بقدر ما يعرف الضب بالذي يجري في البحار . وهذه الظاهرة تزدهر فقط في المستعمرات الانجليزية القديمة حيث يتكاثر الهنود والباكستانيون الذين هم أصل هذه الدعوة .

الا أني وما وطئت قدماي أرض الشرق حتى بدأت أسمع وأرى النزاع المذهبي وتنافس الطوائف بشكل حاد ، فهو ــ في الحقيقة ــ ليس بعجب لان الشرق منبع الاديان ومصدر الإسلام ، فمنتهى الجذور يختلف جوا مع منتهى الفروع . فعندما تم التحاقي في « أزهر لبنان » كطالب في تلك الكلية الشرعية الإسلامية ، وجدتني مضطرا أن أدرس مذهبا ــ وهو المذهب الحنفي ــ غير مذهبي الأصلي ، وهو المذهب المالكي . غير أني ــ والحق ــ لم أشعر تعصبا مذهبيا يمارس في تلك الكلية . وربما لأجل أزهريتها ــ وهي شبه فرع من الأزهر الشريف ــ فاساتذتها إما مصريون أقحاح . فمصر معروفة بالتسامح والبعد عن كافة أنواع التعصب . أو العنف في مجال الفكر . فأزهريتهم أضافت إليهم شيئا آخر ــ بالاضافة إلى فطرتهم ــ من المرونة حيث إن رسالة الأزهر الإسلامية تقتضي عدم التعصب ، كما أن رسالتها الإسلامية إلى غير المسلمين تتطلب التسامح ..

واما ان يكونوا من اللبنانيين الاصليين ، أى إنهم ثقافيا وتعليميا أزهريون بحكم التربية والتعليم ، بيد أنه بصرف النظر عن الجو الأزهري المتناغم دينا ومذهبا ، فان طبيعة تركيب المجتمع اللبناني تهيىء الطالب الأجنبي تهيئة طائفية ، دينيا . كان أو سياسيا ، لأن الجو مشبع بخليط من الأفكار والاتجاهات المختلفة . فالمدارس بملها ونحلها ، والمعاهد بمختلف الرسالات ، والجامعات بمختلف الأهداف والغايات ــ كلها مؤسسات مبثوثة بثا ومنثوثة نثا من هنا وهناك ، تفرز مختلف الافكار والايديولوجيات لانها تدار من مختلف الانخخة ، فهنا ــ أنا أيضا ــ بدأت أتصل فكريا بكثير من الأفكار الإسلامية اتصالا مباشرا وعمليا .

فمادة « الفرق الإسلامية » كانت مقررة على طلبة السنة النهائية فدرست بعض الشيء كمعلومات عامة ، بل مبادىء أولية عن الفرق ، لأن الدراسة المنهجية

بطبيعتها المحددة والمرسومة لا تستطيع أن تقدم دراسة مفصلة تفي بالغرض بيد أن المعلومات العامة التي درسناها عن الفرق أتاحت لي فرصة تعميق المدارك فيها حيث وجدتني مولعا بالمطالعة لكل شيء يتصل بالفرق . فدراسة الفرق تثير الفضول لدراسة التاريخ الإسلامي . دراسة جادة تحليلية . ونظرا إلى كون لبنان ــ وربما أيامئذ ــ المركز الثقافي في الشرق الأوسط ، فإن الكتب والمراجع هي في متناول يد كل من له شغف من التزود بالعلم ، وما على المرء إلا أن يرتاد المكتبات ، وما أكثرها .

غير أني لم أكن في الحقيقة خالي الذهن تماما عن بعض هذه الفرق الإسلامية ، وبخاصة « الشيعة » . وهنا بدأت أقرأ عن التشيع لأن الشيعة . ألمع الفرق ، وأكثرها إثارة . وما فتح الباب أمامي وجود مدرسة شيعية تابعة للامام موسى الصدر في مدينة صور ، بأن وجود مجموعة من التلاميذ الافارقة من « غرب أفريقيا » فيها . وهو أمر أتاح لي فرصة زيارة هذه المدرسة مرات متتالية ، وفي أول الأمر كنت أتصرف مع جو المدرسة بشيء من التحفظ والحذر ، بل عدم الاهتمام ، غير أني يوما ــ في احدي زياراتي لها ــ رأيت شيخا من شيوخهم يدرس النحو « الفية بن مالك » بشرح وتعليق أعجباني ، ورأسه مكور بعمامة سوداء كعادة الشيعة . فأنا تلميذ مشغوف ومغرم بقواعد اللغة العربية ، فجلست في أخريات الجالسين أستمع منصتا ، والشيخ لايحمل كتابا ولاينظر إلى قرطاس ، أو سبورة ، وكأنما الشواهد النحوية منقوشة في ذهنه نقشا ، ومحفورة في ذاكرته حفرا ، فحينا يستشهد ببيت شعر جاهلي ، ثم يتلو القصيدة التي فيها البيت برمتها . بدون ما داع ، وطورا يستحضر آية قرآنية ، وربما انساب لسانه فيها انسيابا . حتى آخر السورة ، فتارة يقول : قال الأشموني كذا في هذه المسألة ، قال المكودي كذا فيها ، قال ابن عقيل كذا فيها وقال ابن هشام فيها كذا . وأما السيوطي في ألفيته ، فانه يقول كذا وكذا . و يقوم تلميذ النحو ويحل محله تلميذ المنطق ، فإذا الشيخ في المنطق منطقي أكثر منه في النحو نحويا . يشرح و يفصل في المقدمات : صغراها وكبراها ، ونتائجها ومحمولها ، ومصورها ، ومصدقها ، ودالها ومدلولها ، وكأنها اصطلاحات من صنع يديه . لم يسبقه إليها سابق . فإذا أنا أجدني منساقا بالتسليم عليه باحترام جم ، وابتسم لي فقال : كأني بك ضيفا ، ليس لي سابق عهد برؤيتك هنا ؟ قلت أى إنك لصادق ،

فحدثته بأني أزهري (طالب في أزهر لبنان) فاستحسن ، فقال إني لجد سعيد أن أري ناشئة الإسلام يسافرون من ديارهم إلى الشرق منبع الإسلام ، ليتلقوه صافيا خاليا من الشوائب والأدران . وطلبت منه أن يرشدني إلى الكتب التي استطيع التزود منها بمعلومات عن المذهب الجعفرى « الشيعي » فقال أن أردت ذلك فمبدئيا عليك بكتب الشيخ شرف الدين الموسوي العاملي ، وهكذا اتصلت بهذا المذهب العظيم . عن طريق هذا الرجل العملاق الذي يجهل مقامه كثير من أبناء الإسلام ، من غير الشيعة ، بيد أنى لا أخفي بأني كنت مشبعا عن المذهب الجعفري بمعلومات أدرك الآن ــ والحمد لله ــ بأنها في أحسن تعبير كانت سقيمة وفاسدة ، ولاتمت إلى واقع الجعفرية والتشيع بصلة ، ولذا فإنني في أول الأمور كنت ربما قرأت مقدمة كتاب ، ثم أضعه جانبا متكاسلا عن مواصلة القراءة لأني ــ نفسيا ــ لم أكن مهيأ للانسجام مع الموضوع الجديد . إلى أن لفت نظرى كتيب صغير الحجم ــ شيعي ــ أغراني عنوانه بقراءته واسمه « أصل الشيعة وأصولها » أعتقده من مؤلفات الشيخ حسين كاشف الغطاء . فقرأته مرة تلو أخرى لاطمئنان نفسي فيما جاء فيه من تقرير ، لانه كتاب وضعه قلم شيعي ، فاني ــ اذا ــ واثق بأني أحشو عقلي بمعلومات صحيحة عن الموضوع الذي أقرأ فيه (التشيع) والحق أني لم أجد فيه ما يسيء إلى القوم أو ما يجعل عقيدتهم تنسب الى الخنى . فشاورت أحد العلماء الكبار الذين أثق ثقة مطلقة في علمهم وحيادهم ــ إن جاز استخدام كلمة «الحياد» في المسائل الاعتقادية ــ من الأزهريين عن حقيقة الشيعة والتشيع . فأفتاني بل أسهب في الفتيا ، ومما قاله لي : إن اسلام الشيعة كإسلام أى مسلم آخر لوحدة المصدر . وهو كتاب الله والسنة ، فالشيعة في اجتهاداتهم يصيبون ويخطئون ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل السنة . وهنا شرعت بشيء من الاهتمام أكثر من القراءة لهم ، مما دفعني أيضا الى توسيع حصيلتي عن التاريخ الإسلامي . لمعرفة مزيد من الجذور التاريخية للمذاهب الإسلامية ، ومواطن اختلافاتها . وأسباب تلك الاختلافات . ودوافعها ، وأتاح لي الحظ زيارة «إيران معقل الشيعة» ودرست في جامعة طهران ردحا من الزمن ، مما أتاح لي فرصتين عظيمتين ، فرصة الا تصال برجال الشيعة الكبار وعلمائها الاجلاء في مدينة «قم» (المقدسة لدى الشيعة) وغيرها من المدن

الكبيرة ، وفرصة قراءة الفكر الشيعي عربيا وفارسيا ومناقشة علماء الشيعة مشافهة (بصفتي ستيا طبعا) والحق اني ــ شهادة أمام الله ــ أقول بأني لم أجد فيهم ماكنت أسمعه عنهم من أقوال منكرة وتصرفات بذيئة . ولم أر شيئا منكرا يأتي به عوامهم إلا و يأتي بمثله أو أمثاله عوام السنّة في مصر ، أو في المغرب ، أو في السودان ، أو في السنغال ، مما يدفع عنهم تهمة «تخريب الإسلام والغلّو فيه» . والحق ان مايوجد لدى غير الشيعة من الغلّو ، كالاعتقاد بجدوى زيارة الأولياء ، والتمسح بأضرحة الصالحين ، والتضرّع اليهم . والإيمان بشيوخ الطرق . لا أعتقد بأنه يوجد مثيل له لدى الشيعة ، وهو واقع يجعل المنصف يفكر مليّا قبل توجيه سهام الاتهام إليهم بالغلّو وممارسة البدع .

وأما اتصالي المباشر بالفكر الأباضي « المذهب الأباضي » فإنه يرجع إلى صيف ١٩٨٠ ، وقبل هذا التاريخ ما كانت معلوماتي عن الحركة الأباضية تعدو كونها معلومات سطحية وساذجة . وشاءت الأقدار لي أن أكلف بتقديم بحث عن «سلطنة عمان» . لقد اعتاد القسم العربي في معهد اللغات التابع لجامعة جواهر لال نهرو تكليف طلابه بالكتابة حول دول عربية معينة ، تاريخها السياسي ، ونظامها السياسي ، اقتصادها . وحياتها الاجتماعية الخ (١) . واختار زملائي في القسم دولا عربية مشهورة مثل العراق ، وسورية ، والسعودية الخ ... نظرا لتوفر المراجع عن هذه الدول ، فوقعت عمان في نصيبي ، ونظرا لقلة معلوماتي عن عُمان إلا على مستوى ماتقدمه وسائل الإعلام ــ وهو شيء لايصلح أن يكون بحثا جامعيا ــ عزمت السفر إلى عُمان ، وحظيت الفكرة بتشجيع من أستاذي ، السيّد «عبدالحق بن شجاعة علي» مدرّس المادة(٢) ، وقدم لي سعادة سفير سلطنة عمان في دلهي «السيد أحمد حمود المعمري» تسهيلات جمّة . وزوّدني بمجموعة صالحة من كتب تتعلق بتاريخ عمان ونهضتها الحديثة . كما أتاح لي فرصة الاتصال برجال العلم في عمان لتسهيل مهمتي . والحق أني لم أندم على ماقمت به ، ولقد غنمت من تلك السفرة مغنما ثقافيا وفكريا جعلاني أحِسّ بسعادة تغمرني . فلو كنت اكتفيت فقط بالمعلومات المتاحة عن وسائل الإعلام ، وتعليقات المسافرين ، وانطباعات السياح ، لتكوّن لدىّ شيء من المعلومات ، غير أنها ماكانت لتعدو مستوى الأخبار المسموعة ، يتعذر

اعتبارها علما مركزا . اللهم إلا إذا أردت أن أجعل من نفسي نسخة مكررة من «كتاب المقالات» فرغم ضيق ذات اليد ، ورغم شحّ المصادر المادية ــ كطالب ــ عكمت عيبتي ، وتوكلت على الله ، إلى عمان . فعمان في الصحيح كانت ــ إلى زمن قريب جدّا ــ بلادا مغلقة الحدود . لا يكاد الناس يعرفون مايجري في داخلها ، بيد أنها في حقيقتها بلاد تعدّ واحدة من أغزر وأغنى البلاد الشرقيّة في المادة التاريخية . ولها صفحة مشرقة في تاريخ الخليج والجزيرة العربية ، وكثير من العلماء المسلمين الكبار من أصول عمانية . والحق أن دور عُمان التاريخي لم ينحصر فقط في الجزيرة العربية والخليج ، وإنما تعداها إلى إفريقيا حيث خضعت شرق إفريقيا للنفوذ العُماني ، ونقلت عاصمتها من مسقط إلى «زنجبار» ولقد كان للعمانيين علاقة تجارية قديمة جدّا مع كلّ من الهند والصين ، كما كان لها قوة بحرية مكونة من أساطيل تجارية تجوب البحار ، وأساطيل حربية لحراسة موانىء عُمان العديدة .

ولقد هالني عند زيارتي لها معالمها التاريخية ، وهي آثار تعبر وتشهد وتتحدث عن ماض عريق وتاريخ حافل بالعظمة ، تبهر العين . فقلاعها الشامخة وحصونها المنيعة ، وأسوارها الشاهقة ، وقصورها العالية تعد بالمئات وكلها تنبىء عن مدنية عظيمة سادت هذه البلاد .. وهنا بدأت أعيش مع الأ باضية ، فالأ باضية هو المذهب الرسمي للدولة . فبادىء الأمر كنت أحسبهم ــ والذنب ذنب التاريخ ــ من الخوارج ، وكنت قد هيأت نفسي (كمسلم سنّي) لمعايشة فرقة من الخوارج المتشددين جدّا ، والذين لا يتردّدون في إنزال أشد العقاب على أصغر ذنب . وأتفه معصية ، ــ ان كان في المعصية ماهو تافه ــ استنادا إلى التاريخ الذي قرأناه عنهم ــ غير أني لا أخفي دهشتي حين لم أجد شيئا من قبيل ماكنت أتوقعه منهم ، فإذا هم مسلمون عاديون يصلّون كما نصلّي ، و يقومون بسائر العبادات طبق ماتعودت ممارسته ، والذي رأيت الناس يمارسون ، فقرآننا جميعا واحد لم نختلف فيه حرفا . والذي لفت نظري فيهم ــ وهي ظاهرة قلما وجدت في العالم الاسلامي ــ اكتظاظ مساجدهم بالمصلين في سائر أوقات الصلاة ، وانعدام مرض الغيبة من بينهم ــ وهو مرض متفش في العالم الإسلامي حتى من بين أولئك الذين يعتبرون في مستوى قيادة الأمة فكريا ــ فلم أسمعهم يسبّون أحدا ، وجملة القول أني لم أر منهم ماأنكرت .

وأرجو ألاّ يكونوا قد رأوا ماينكرون . وجالست علماءهم وأفدت منهم ، واستهواني التعرف بمزيد عن مذهبهم ــ المذهب الأ باضي ــ وهو ــ والحق ــ مذهب خليق بعناية المثقفين واهتمام الكتاب والدارسين من المحققين والباحثين لأنه جزء بالغ الأهمية في التاريخ الإسلامي . فوجدتني غير مؤهل للكتابة عن عُمان بتاريخها الحديث والقديم ، وما مرّ بها من أحداث جسام ، وما فيها من أمور تصلح أن تكون موضوعات تستغرق مجلدات . فهنا خطر ببالي الكتابة عن المذهب الأ باضي والتركيز فيه فقط دون سواه ، لعلمي وليقيني أن جلّ المسلمين لا يعرفون عن هذا المذهب إلا نزراً يسيراً لا يتعدى مستوى «السماع العابر» فهو شيء غير جائز فينا كمسلمين . فمن الواجب على المسلمين أن يعرف بعضهم مالدى البعض معرفة مفصّلة ، بغية تفادي تبادل التهم وسوء الظنون .

ولقد حاولت في هذا الكتيّب تقديم فكرة صحيحة عن المذهب الأ باضي إلى جمهور المسلمين ــ وليس لي من هدف سوى إنصاف العلم ، وإنصاف الذين أكتب عنهم ــ وإلى الذين أكتب لهم . ماوسعني التوفيق ، ثمة آراء للأ باضية بدا لي أنها صحيحة جدّا ، وهي تخالف مالدى غيرهم . ولم أتردد في تأييدها تأييدا مطلقا . وثمة بعض الآراء أيضا بدا لي أنها واهية ، ولم أتردد في نقدها وإظهار ما رأيته أقرب إلى الصواب . فالتاريخ الإسلامي للمسلمين جميعا ــ سواء منه ما ينسب إلى هذه الفرقة أو تلك ــ ولا ينبغي أن ننظر إلى شيء منه أو جانب منه ، وكأنه يخصّ طائفة معينة . فتاريخ الأ باضية جزء مهم من التاريخ الإسلامي ، فهو ــ إذا ــ تاريخ إسلامي . وتاريخ الشيعة جزء مهم من التاريخ الإسلامي ، فهو ــ إذا ــ تاريخ إسلامي . فلا ينبغي ان ندرس أيّا من هذه التواريخ عل أنه منفصل أو على أنه يخص فرقة معينة ، أو أن ندرس تاريخ الفرق . وكأنه تاريخ مليء بالافتراءات والأكاذيب ، فهذا تحامل سافر . فأنا شخصيا قد تكوّن لديّ انطباع مفاده أن تاريخ الفرق أو التاريخ الذي كتب من قبل علماء من الفرق . تاريخ جدير أن يكون من أصح التواريخ ، فهؤلاء لم يكونوا يكتبون مترجمين لوجهات نظر الدولة الأموية . أو وجهات نظر الدولة العباسية ، أي إنهم ماكانوا مقربين إلى ذوي النفوذ في هاتين الدولتين اللتين تعتبران البناء المتكامل للعقل العربي الإسلامي . فبما أنهم لم يتعاملوا مع هاتين الدولتين ،

فإنهم أبعد من أن يكونوا تحت تأثير الناقدين فيجاملوهم في كتاباتهم ، أي إن تاريخهم ، أو بالأحرى التاريخ المكتوب بأقلامهم ، لا يعكس وجهة نظر الدولة الإسلامية فيكون أشبه «بالتاريخ الرسمي» والتاريخ الرسمي تاريخ سياسي ، فنسبة الصحة فيه ضئيلة . فمن المعلوم أن الأباضية والجعفرية والفرق الأخرى التي كانت تناهض الدولتين ــ الأموية والعباسية ــ ما كان قضاتهم مع الحكام والولاة لهاتين الدولتين ، فيقوموا بإصدار فتاوى لهم لاستحلال دماء بعض الناس ، أو استخراج حيل شرعية للولاة لتحليل حرام أو تحريم حلال . ولم يرو عنهم أنهم كانوا ينتقلون من مذهب إلى آخر ؛ طمعا في منصب القضاء ، فهم ــ إذاً ــ عندما يتحدثون عما كان يجري في هاتين الدولتين إسلاميا ، فإن شهادتهم تكون أجدر بالقبول لبعدها عن تبرير المواقف .

وإذا كان للفرق عثراتها وزلاتها . فإن لغيرهم عثراتهم وزلاتهم ، غير أن كثيرا من الناس يغضون البصر عن سيّآت مايحبون . و ينقّبون عن سيّآت مالا يحبون .

عندي أن المسلمين جميعهم على قدم المساواة لا توجد ميزة تنفرد بها طائفة دون غيرها ، فتبادل التهم مهاترات لا تصل إلى السماء . لقد آن الأوان للتخلي عنها . فقولك إن مذهبي هو المختار الصحيح المقبول عند الله هو قول قلته أنت ، لم يقله الله ، ولم يقله رسول الله . فثق أن غيرك راض عن مذهبه ومطمئن فيه . فعندما تفتي نفسك بصحة وسلامة اعتقاداتك . فإن فتواك هذه من باب مدح أعطاف الذات فإن غيرك أيضا يستطيع فعل نفس الشيء ، والواقع أنه ينبغي أن تبتعد الانفعالات العاطفية عن المسائل الدينية .

والله ولي التوفيـــــق ،،،

عمر بن الحجاج محمد صالح با

(عمـــــر با)

نيودلهي ــ ١٩٨١/٦/١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله علي سيدنا ومولانا رسول الله

كلمة الافتتـــاح :

لا يخامرني شك في أن معظم المسلمين ــ غير الأ باضيين ــ في حاجة إلى تعريف بالمذهب الأ باضي لأسباب منها عدم انتشار هذا المذهب انتشار باقي المذاهب في العالم الإسلامي . فيطرق الآذان ذكر اسمه كثيرا .

ومنها ظن معظم الناس أننا لسنا في حاجة إلى مزيد من المذاهب ، وكأن هذا المفهوم المفترض واقع فعلا ، ويمحو وجود باقي المذاهب ، فنتج عنه تجاهل المذاهب الصغيرة «عدداً» .

غير أن المبرر الذي نعتبره أكثر إلحاحا لتعريف الناس بالمذهب الأ باضي ، هو السعي لإزالة فهم تاريخي خاطىء عن هذا المذهب . تداوله الكتاب وأصبح سائدا في الأ وساط العلمية وغير العلمية «التقليدية» وهذا المفهوم يتحمل تبعته كتاب غير دقيقين في كتاباتهم ، ولا مقدرين مسئولية الكاتب نحو المادة العلمية التي يقدمها إلى الجمهور كشيء خالد له دوره في تكو ين الفكر البشري .

فنحن ندرك تماما أن معظم الإخوة من المسلمين لا يعلمون حول ماإذا كان هناك مذاهب إسلامية عدا المذاهب الأ ربعة الموصوفة «بالسُّنِّيَة» وهي المالكية والشافعية والحنبلية والحنفية . بل حتى أولئك الذين نالوا قسطا وافرا من الثقافة الإسلامية . و إن كانوا يعلمون أن هناك مذاهب أخرى ، فإنهم يعتقدون ويحكمون ــ مسبقا ــ بفسادها ، لأنها ــ مسايرة لفلسفتهم ــ (من الفرق الضّالة) . فهم إذا سمعوا عن فرقة اسمها «الأ باضية» تعوذوا أو «الجعفرية» استرجعوا ، وكأنما آذانهم اقترفت ذنبا من الكبائر .

ولعل العامل في ذلك هو لما لوقع كلمة «السنّي» من رنين موسيقي مؤثر في النفس ، وهي كلمة تكاد تكون محتكرة ــ اصطلاحا ــ لتلك المذاهب . وتصف بها نفسها وتتلقب بها .

ذلك لأن كلمة «السّنّة» رديف مباشر يأتي بعد القرآن الكريم . وعليه فإن المعنى المتبادر إلى الذهن عند قولنا ــ المذاهب السُّنِّية ــ هو أنها تمشي طبق سنة

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى ضوء تعاليم القرآن الكريم . ملتزمة بهما التزاما مطلقا لا شذوذ فيه ، ولا استثناء ، ولامخالفة مثال ذرة . فهي ـــ إذاً استنادا إلى مفهوم هذا الاسم إسلاميا ـــ من الصحة والسداد ، بحيث لا يأتيها الباطل من أي مأتى . فمن أين يأتيها هذا الباطل وهي تسترشد بالقرآن ، وتهتدي بهدي السنة الغراء !.

وعليه فإن غيرها من تلك التي ـــ لا توصف بالسنية ـــ ليست سنّية بكل مافي «عدم السنّية» من معنى مبعد عن الحق والسداد . ومن مجافاة جوهر الدين ، والتخلي عن مصدريه الصحيحين : الكتاب والسنة .

وبناء على هذا المفهوم فإنها ليست بملتزمة بما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ، إذ لو كانت ملتزمة بهما لتسمّت بتلك التسمية «المذهب السنّي» .

وهذا المفهوم الخاطىء سبب مباشر «من جملة أسباب أخرى قد نذكرها لاحقا» ، لإدبار معظم المسلمين عن المذاهب الأخرى ، بل حتى ضنّوا عليها باسم (مذهب) وسمّوها «فرقا ، جمع ، فرقة» وهذا شأن المسلمين من أنصاف المتعلمين .

وأما العارفون منه بحقائق الأمور، فإنهم إما أن يكونوا قد عرفوها بعد أن فات أوان تصحيح الأخطاء لشيوعها شيوعا فاحشا ، وإما لأنهم أخذوا بمبدأ اللامبالاة وترك الأمور كما هي . وإما لأن محاولة تصحيحها تضرّ وتقلب الموازين التي قد تم استقرارها ، وإما لأن «جهلها لا يضّر» ، وإن معرفة تفاصيل أصول جواهر المسائل العلمية من خصائص المتخصصين ، والراسخين في العلم . ولا بأس في انفرادهم بها كامتياز . وأما العوام فلا أحد يسهر على تصحيح عقائد العوام في أمور كهذه .

فهم إن قيل لهم : إن الفرقة الأباضية ليست فرقة بمعناها الموحي بالانعزالية ، بل هي مذهب ، تساءلوا كيف ؟ أيتأتى لها ذلك ؟ وإذا قيل لهم : ـــ علاوة على ذلك ـــ إنه ليس مجرد مذهب فقط ، بل إنما هو مذهب سنّي ممعن في سنيته لالتزامه بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، زادوا في غرابة هذه الدعوى . وقالوا من يعترف له بذلك ؟ ومن يشهد ؟ وكأنه في حاجة إلى معترف يعترف ، أو شاهد يشهد .

وعـلّلوا رفضهم بأن أي مسلم يبغي الانصهار في بوتقة المرضيّ عنهم (إلٰهيا) فعليه ــ لا مندوحة ــ باتباع أحد مذاهب أهل السنّة والجماعة .

ولا أعـتقد أن أحدا ينازع على ثبات الذي قلته . والحق أنه مفهوم واسع جدا يـكاد يعم سائر المسلمين السنيين . غير أنه من الملاحظ في أسلوب كثير من المعاصرين مـن الـكـتـاب الإسلاميين من السنيين التحرّر من عقدة الشعور «بالأفضلية» إلى حد مـلـمـوس ، والمـيـل إلى إعطاء كل ذي حق حقه طبق موازين منطقية علمية معقولة ، بـعـيـدة عـن روح الـتـعـصـب المذهبي ، أو تكرار أقوال المتعصبين من القدامى الذين عـاشـوا أجـواء مـشـحـونـة بصراعات فلسفية ، نتيجة ضيق الأفق الفكري . أو إقحام الـسـيـاسـة في المـسـائل الدينية البحتة مما ولد سوء فهم ، وتفاهم ، ألحق بالأمة ضررا فادحا .

ثـم ، لـنـا أن نـتـسـاءل : هل من المسلّم به أن يعكس الاسم حقيقة المسمّى كشيء بـديـهي ؟ أو لا نرى أقواما يحملون أسماء إسلامية في منتهى العظمة والقدسية لـدى المـسـلـمين في حـيـن أن سـلـوكـهـم سلوك أعتى مشرك ، وتصرّفهم تصرف أرعن مـلـحد ، وأعند كافر ؟ تعيش «الأسماء» فالاسم لا يعدو كونه علما ، وفقط ، سواء أكان اسم إنسان أم اسم شيء من الأشياء .

و بخاصة في المحيط الديني ، حيث السلوك والمحل وسلامة الاعتقاد . المعيار الـذي يـعـرف به رجحان الكفة أو نقصانها . فالله لا يحاسب الناس على أعمالهم يوم قـيـامـتـهـم على ضوء أسـمـائهم . إذ لو كانت الأسماء في حد ذاتها نافعة لحامليها ، وشـافـعـة لـهـم مجردا مـن أي عـمـل حـمـيـد عند الله ، أو تحدّد رجحان كفة الميزان يوم الجزاء ، لـمـا كان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من اسم سوى اسمه «أو أسمائه» صلوات الله وسلامه عليه ، ولما حافظ المسلمون على أسماء سلفهم الصالح أمثال أبي بـكر ، عمر ، عثمان ، علي (رضوان الله عليهم) . بل لقد رأينا أبناء الصحابة في حياة مـحـمـد (ص) يحـمـلـون أسماء غير أسمائه صلى الله عليه وسلم أمثال عبدالله ، حسن ، حـسين الـخ .. ولم نسمع بأنه صلى الله عليه وسلم طلب أو أمر بتغيير تلك الأسماء . غير أنـنـا سـمـعـنـا ــ والحق ــ عن حديث يقول : (خير الأسماء ماحمّد أو عبّد) على فرض صحته ، وأعتقد أن المقصود هو التيمن والتبرك ، لا التفضيل بمعناه الديني .

والحق أن اسم أهل « السنّة ، الشيعة ، الأباضية » اصطلاحات ، ولا مشاحّةَ في الاصطلاح . فالاصطلاح إنما الغاية منه خلق اسم جديد لمسمّى جديد . وغالبا ماتكون هذه من الأشياء والأفكار المستحدثة والآراء المستنبطة .. لكيلا يحصل التباس بينها وبين نظيراتها من تلك العواتق من الأسماء : أسماء الأشياء ، وليتبادر إلى الذهن ذلك الشيء المقصود في الاسم الجديد فور ذكر اسمه مباشرة .

غير أننا ــ رغم تسليمنا برونق وجاذبية اسم « السنة » ــ فإنه اسم كان له في مرحلة من مراحل تاريخه الانتقالي مفهوم لا يدعو إلى التباهي .

إنه كان في الزمان الأول قبيحا ، لكون المراد بالسّنة التي سنّها معاوية في سب (عليّ) وشتمه على المنابر ، فصار ذلك سنة ينشأ عليها الصغير ويموت عليها . حتى غيّرها عمر بن عبدالعزيز في خلافته فأهل ذلك الحال هم أهل السنة في ذلك الزمان . ثم اندرس هذا السبب واختفى . وفي مرحلة أخرى لاحقة أخذت كلمة « السنة » مفهوما آخر جديدا أقرب إلى حقيقتها في معناها اللغوي والديني . فأخذوها وفسروها بأنها سنة النبي صلى الله عليه وسلم وتمسحوا بها . وجمعوا بين المتضادين في الولاية ، وهم يعلمون أن الحق مع فريق منهم ، وخالفوا سنتهم الأولى « سبّ الصحابة في المنابر » لحين صارت الدولة لبني العباس من بني هاشم(١) .

---

(١) العقود الفضية . ص ٧١ ، نقلا عن المسعودي والحاكم .

المذهب الأباضي الذي نحن بصدد ذكره ، ينسب إلى التابعي/ عبدالله بن أباض/ فمن هذا الرجل ؟

قال خير الدين الزركلي في الأعلام : عبدالله بن أباض المقاعسي المروي التميمي من بني مرة بن عبيد بن مقاعسي : رأس الأباضية وإليه نسبتهم ، اضطرب المؤرخون في سيرته وتاريخ وفاته ، وكان معاصرا لمعاوية ، وعاش إلى أواخر حياة عبدالملك بن مروان ، قال : وأخبار الأباضيين كثيرة في التاريخ القديم والحديث ولايزال مذهبهم منتشرا ، و يردف قائلا باقتباس عن كتاب «أبو الهول» قال لي لا تزال بقية هؤلاء «الأباضية» في بلاد الجزائر وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليد عريقة ولا تحكم بينهم محاكم الدولة ، وإذا ماطل مدين دائنه دخل المسجد وأعلن ذلك . وحينئذ يقاطع المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفى ماعليه ، قلت والقول مازال لصاحب الاعلام ، وهم في المشرق اليوم أكثر أهل المملكة العمانية ، ولهم فيها الإمامة والسيادة . أما في الجزائر فبلاد وادي ميزاب معظم سكانها أباضية ولهم في كل بلد منها مجلس يسمى مجلس العَزّابة «بفتح العين وتشديد الزّاي» وهو جمع عازب و يعنون به من انقطع للعلم والدين عزوبا عن الدنيا ، و يتألف من عشرة أشخاص ، يجتمعون في مسجد البلد ، و يفصلون بين المتقاضيين ابتعادا عن إلرجوع الى المحاكم غير الإسلامية . وهي هناك فرنسية (قبل استقلال الجزائر) ومن أبى حكمهم أعلنوا البراءة منه ، فيقاطع حتى يرد الحق و يتوب أ هـ (١) .

قال دونالدهولي « ينسب المذهب الأباضي إلى عبدالله بن أباض الذي ظهر ذكره حوالي عام ٦٤هـ ٦٨٣م . إذ نشأ في عهد معاوية بن أبي سفيان ، وتوفي في خلافة عبدالملك بن مروان » (٢) .

---

(١) الأعلام . خير الدين الزركلي ج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) دونالدهولي : عُمان ونهضتها الحديثة ص ١٦٧ .

غير أن المؤرخين مختلفون بعض الاختلاف في شخصية عبدالله بن أباض هذا الذي اشتق منه اسم المذهب الأباضي كما اختلفوا حول حصول الصحبة له وعدمه . ومنهم من ذكر بأن الصحبة حصلت له لوقت قصير . و يشير أطفيش إلى أن عبدالله ابن أباض كان صحابياً لفترة قصيرة من الوقت ، نقلا عن كتاب «رسالة شافية»(١) .

غير أن الثابت باتفاق المؤرخين هو أنه كان تابعيا . و يذكر بعض المؤرخين الأباضيين أن ابن أباض قد نشأ في زمن معاو ية بن أبي سفيان ، وعاش الى زمن عبدالملك بن مروان(٢) . والحق أن عبدالله بن أباض نفسه يذكر في رسالته المشهورة التي بعث بها إلى عبدالملك بن مروان بأنه أدرك معاو ية وأنكر عليه أشياء من أعماله وتصرفاته ، وهذا ، ــ إن صح ــ يدحض كلمة «نشأ في عهد معاو ية» لأنه لينكر على معاو ية شيئا من أعماله ، فلابد أن يكون في مستوى من العمر والثقافة يؤهلانه لوعى مايجري في الدولة الإسلامية من أحداث وأمور ، والقدرة على الحكم لها أو عليها ، فإنكاره على معاو ية شيئا من الشئون المتعلقة بالشريعة وقضاياها يفهم بأنه كان مهتما بالأحداث الجارية اهتمام العارف بها والمتتبع لها عن كثب وان لم يبلغ درجة التورط فيها . وأنه أيضا كان على جانب من الثقافة والإدراك والتمييز مايسمح بنقد سياسة معاو ية نقدا علميا مستندا على الكتاب والسنة .

اللّهم إلاّ إذا كان المقصود هو النشوء الفكري وليس نشأة الولادة ، ومهما يكن من أمر عُمر عبدالله بن أباض ، فإن من المسلم به هو أنه أقدم بكثير من أبي حنيفة ومالك ناهيك عن الشافعي وابن حنبل .

غير أنه لم ينل شهرة في دنيا المذاهب تضارع شهرة أصحاب المذاهب الأربعة الكبرى لموقفه تجاه الحكام وموقف الحكام تجاهه وتجاه مذهبه ، لأن الحكام حاربوا مذهبه ، وحالوا بين الناس و بين معرفة حقيقة ذلك المذهب سوى كونه من الخوارج المعتدلين .

---

(١) الدكتور عوض خليفات : نشأة الحركة الأباضية ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ، نقلا عن الأزكوي والحارثي .

لأنه كان يمثل إحدى جبهات الرفض السياسية الأموية والعباسية ، ذلك لأنه مذهب واكبت نشأته تكون اللّبنة الأولى لبناء دولة الإسلام لعهد مابعد الخلفاء الراشدين . وتكون المجتمع سياسيا واجتماعيا على ضوء التغييرات التي حصلت بعد انتقال الحكم من خلافة إلى ملك . فكان لزعماء «المذهب الأباضي» رأي ثالث ، كما سيظهر خلال الصفحات القادمة من هذا الكتيّب ؛ لأنهم أي زعماء الأباضية والخوارج ــ أنكروا أن تكون القيادة محصورة في (قريش) ، سواء أكانت في يد بني هاشم أم بني أمية . مع العلم بأنهما ــ رغم اختلافهما فيما بعد اختلافا حادّا ــ فان القرشية تجمعهما نسبيّاً .

فالزعماء الأباضيون لم يؤيدوا الأمويين طوال حكمهم ، بل لم يعترفوا بهم ولاة شرعيين على المسلمين ، ماعدا عمر بن عبد العزيز ، وكذلك كان موقفهم تجاه العباسيين .

في حين أن قضاة المذاهب الأربعة الأخرى وزعماءها تعاملوا مع الحكم العباسي خصوصا ، مما ينبيء إقرارهم بصحة وشرعية الحكومات المذكورة عدا انتقادات لسلوك بعض الولاة والأمراء من قبل أئمة المذاهب الأربعة . بدرجات متفاوتة غير أن موقفهم عموما تجاه الحكومات الأموية والعباسية مهما كان متشددا فلا يشابه موقف كل من الأباضية ، والجعفرية ، اللتين كانتا ذواتي موقف رافض تماما ، ولم تتعاملا مع الحكومتين قط .

فالإمام الشافعي نفسه مثلا كان قرشيا فلا ينتظر منه أن ينكر زعامة قريش على المسلمين ، أو تكون مسألة نقل الزعامة منها إلى غيرها موضع نقاش بالنسبة إليه ، وهذا لا يعني أن المذاهب الأربعة قالت بحصر الزعامة في يد أسرة واحدة أو قبيلة واحدة .

بيد أن الزعيم الذي ينسب إليه المذهب الأباضي ، عبدالله بن أباض ، في وضع مختلف تماما عن وضع رؤساء المذاهب الأخرى ، لاختلاف المواقف نتيجة الاختلاف في تقدير الموقف المتولد عن فلسفة الخلافة .

ذلك لأنه ــ كما أشرنا ــ أدرك الحوادث والأحداث وهي لمّا تزل طازجة ، وهي تلك الأحداث التي انقسمت الأمة الإسلامية من جرائها إلى مجموعات وفئات

تتطاحن وتتصارع سياسيا إلى حد تبادل الاتهامات بالكفر والشرك ، وعايش الصحابة ، وسمع منهم حججهم مباشرة . وموقفه ــ إذاً ــ موقف متولد عن ادراك الأمور كما هي .

كما أنه اشترك في الدفاع عن الكعبة المشرفة إلى جانب عبدالله بن الزبير ضد الجيش الأموي الشامي . مع أن وقوفه جنباً إلى جنب مع عبدالله بن الزبير لا يعني أنه كان مهادنا له ، بل كانا مختلفين في وجهتي نظرهما السياسية . وإنما كان موقفه وأصحابه احتسابا .

إذاً ، فإدراكه الأمور ومعرفته أسبابها مباشرة لا عن طريق الرواة والمؤرخين أعطاه ميزة ينفرد بها من بين أئمة المذاهب في رأينا فكان لابد أن تنعكس مواقفه على أتباعه وتلاميذه . وإن كان هؤلاء الأتباع أصبحوا تلاميذ الاستاذين العملاقين ، وهما عبدالله بن أباض . وجابر بن زيد الأزدي .

وعلى ضوء معطيات موقف فلسفة المذهب تجاه الحكام فما كان له أن ينتشر أبدا . لأنه ليس بمذهب يتصف أتباعه بخلو الذهن عن جوهر أسباب الخلافات ومسبباتها . فموقف ابن أباض موقف منبثق عن دراية وإدراك للأمور بكل أبعادها ، لا عن تخمين أو تفسير وتأويل للأحداث . والحق أنه كان للمذهب الأباضي ــ كمذهب ــ زعيمان ، زعيم روحي وهو جابر بن زيد والذي سوف نتناوله بالكلام والدرس . فقد كان جابر هذا عالما مشهورا ومشهودا له بالتبحر في العلم ، وكان قد أخذ العلم عن ينابيعه الصافية ومنابعه النقية من الصحابة الكرام أنفسهم مباشرة . لقد كان من بين أساتذته الأجلاء ــ ولعلهم رؤساء أساتذته ــ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وثلاثة من العبادلة المشهورين ، وفي مقدمتهم عبدالله بن عباس الملقب (بحبر الأمة) وعبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وزعيم سياسي أو قائد للحركة ، وهو عبدالله بن أباض (٥).

ونكرر قائلين بأن معلوماتنا عن ابن أباض لا تسمح لنا بتقديم معلومات دقيقة عنه في سائر نواحي حياته . فمثلا أين ولد ؟ وأين مات ؟ ومع ذلك ، فرغم اضطراب المعلومات عنه فإن معظم المصادر الأجنبية تشير إلى أن اسم المذهب الأباضي مشتق من اسم عبدالله بن أباض ، فعرفته بأنه رجل من قبيلة تميم العربية .

وحتى اسم (عبدالله بن أباض) لم يتفق كل المؤرخين على تحديده . لقد ورد في كتاب «نشأة الحركة الأباضية» . أما مالطي فينسب الأباضية الى شخص اسمه «أباض بن عمر» و يذكر أن أتباعه قد خرجوا من سواد الكوفة ، فقتلوا وسبوا الذرية . ــ اذاً ــ فنحن أمام شخص آخر يحمل اسم «أباض بن عمر» و يزعم المالطي أن المذهب ينسب اليه .

غير أن صاحب كتاب «نشأة الحركة الأباضية» يبادر في نفس السياق الى دحض هذه المعلومات التي أوردها المالطي ؛ لأنه لايمكن الركون اليها لأنها تخالف جميع الروايات الواردة في المصادر الأخرى المعروفة لدينا(١) . و يضيف قائلا ــ إمعانا في نقض معلومات المالطي : «وكما أن المؤلف ــ يقصد المالطي ــ يورد اخبارا وأعمالا منسوبة إلى الأباضية لا تقرها أيضا المصادر المتوافرة التي تتكلم عن نشأة الأباضية ومبادئها وسلوك اتباعها تجاه الآخرين» .

إذا فالسيد/ خليفات / لم يفته أن يفند مزاعم ــ المالطي ــ لبعدها عن روح المبادىء الأباضية وسلوك اتباعها واستحالة قيامهم بأعمال تنافي تماما ماعرفوا به من تحريم التعرض لأعراض المسلمين أو سبي ذراريهم ، كما هو ثابت في كتبهم ومشهود ــ تاريخيا ــ في تصرفهم . و يضيف أيضا ، فيقول «أما السمعاني ، فيرى أن الأباضية تنسب إلى شخص يدعى الحارث الأباضي و يسمى فرقته بالحارثية ، وواضح خطل هذا الرأي ، لأن الأباضية لم يطلق عليها يوما من الأيام اسم «الحارثية» . و يقول : وكذلك المقدسي فإنه ينسبهم ــ يقصد الأباضية ــ إلى رجل يدعى الحارث بن أباض . و يرد اسم الحارث هذا وفرقته عند بعض مؤلفي المقالات مثل الأشعري وابن حزم ، ولكننا لا نجد ذكرا لهذا الرجل ، ولا لفرقته في المصادر الأباضية مما يدل على خطل هذا القول(٢) .

أما بعد ، فإني أرى أنه من الجدير بالتنويه هنا ــ إنصافا ــ هو أنه رغم

---

(١) نشأة الحركة الأباضية .

(٢) المصدر السابق : نقلا عن «التنبيه» للمالطي . والبدء والتاريخ للمقدسي . الزينة في الكلمات الاسلامية للرازي .

اضطراب حقيقة شخص عبدالله بن أباض في نظر بعض المؤرخين ، فإن المصادر الأباضية الموثوق بها في (هذا المجال) لم تختلف في اسمه أو نسبه . بل إني أزعم بأن هذا الاضطراب ناشيء عن عوامل ، منها تعمد بعض الكتاب من المؤرخين لتوافر سوء النية في كل مايتعلق بالفرق ، لأن معظم الذين اختلفوا بشأن شخص عبدالله بن أباض هم من الذين يستخفون شأن هذا الرجل بغية خلق غموض حوله ؛ ليتسرب الغموض الى فرقته ومذهبه ، مما يتيح فتح مجال واسع للمعلقين للقول بأنه شخص /وهمي/ أو /دخيل/ في الاسلام ، مجهول الهوية . الخ .. كحرب نفسية ضد أتباعه .

ومنها ضيق الأفق في النظرة ، واستخفاف المراجع الأباضية التي هي مظان وجود كل شيء متعلق بالأباضية ، مفصلا ومغربلا . وإلا فإن تلك المراجع في متناول يد الجميع من الدارسين والكتاب ، غير أني لا أستبعد حصول الشيئين معا أي سوء الفهم وسوء القصد ــ كمحاربة الفرق ــ بدون إدراك أن محاربة الفرق ، لا تقتضي عدم تقصي الحقائق العلمية ، لأن ذلك تجن على العلم . فسوء الفهم هنا يكمن في عدم التمييز بين الأسماء ، كعبدالله بن أباض ، أو أباض بن عمر ، أو ، الحارث الأباضي . فهؤلاء المؤلفون لو تجشموا مشقة استنطاق المراجع وكتب السّير ، وأخلصوا النية ، لسلموا من الاضطراب أو الحيرة .

وسوء القصد : هو ــ كما أسلفنا ــ الاستخفاف وعدم الرغبة في الاستفادة من كتب القوم ، واعتبارها موثوقة بها علميا وتاريخيا ، قصد إلقاء ضوء كاشف يقود الراغبين ــ جدّيا ــ إلى استقاء معلومات دقيقة إلى هدفهم . فمعظم المؤلفين من الفرق ينطلقون من مبدأ إثبات فساد آراء الفرق . فمن كان هذا هو وازعه في أول خطوة يخطوها ، فلا ينتظر منه بأن يأتي بشيء جديد نافع .

وقد يرى البعض من كلامي صفة المبالغة ، فإني ــ وايم الحق ــ مسلّم تماما بصحة هذا الافتراض ــ فتجاربي الشخصية مع الناس في كل ما يتعلق بالفرق والمذاهب الصغيرة (الغير السنيّة) أثبتت بصورة لا غبار عليها . بأن مثل هذا التفكير والنوايا واردة جدا ، وإلا ، فقولوا لي بربكم : كيف يجهل شأن رجل تابعي عظيم كعبدالله بن أباض له بصمات واضحة في التاريخ الإسلامي . حيث كان ذا رأي في مسائل إسلامية وسياسية واجتماعية معروفة . رجل شارك في الدفاع عن مكة المكرمة

ضد الجيش الشامي ، وهو حدث بارز في التاريخ الإسلامي . ورجل جاهر برأيه فكانت له مكاتبات ومراسلات مع عبدالملك بن مروان ، وله مواقف مشهودة مع المتطرفين من الخوارج ، بلغت عظمة وتأثير شخصيته أن انتسب إليه رهط ذو شأن من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ورجل له من العلم والمعرفة ماجعله يتصدى لمقارعة السلاطين والغلاة حجة بحجة ــ إذاً ــ فإنسان كهذا من المدهش أن يجهله التاريخ أو يطمر صيته في ثنايا غباره ، مهما تعددت وكثرت أسماء سميّه .

الأباضية كمذهب

الأباضية ــ في الصحيح ــ واحد من المذاهب الإسلامية ، ولعله أقدم وأعتق مذهب اسلامي . فله جذور ضاربة في عمق التاريخ الإسلامي ويمكن فهم ذلك بسهولة خلال مقارنة تاريخية بين مؤسسي المذهب الأباضي . أمثال عبدالله بن أباض ، وجابر بن زيد الأزدي البصري « التابعيين » و بين مؤسسي المذاهب الأخرى . فالأباضية والجعفرية أعتقدهما لذات بصرف النظر عن الاشتهار وعدمه .

فالمذهب الأباضي ينسب إلى عبدالله بن أباض السابق ذكره ، وهو تابعي كبير له مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي . غير ان الأباضيين يفضلون نسبة مذهبهم الى جابر بن زيد الأزدي العالم المعروف المشهور . و يقولون : إن خصومهم هم الذين « فرضوا » عليهم هذه التسمية ، أي الأباضية . بدلا من « الجابرية » . فعبدالله بن أباض كان رجلا دعا المسلمين إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله . وذلك عقب الأحداث التي امتحن بها المسلمون وافتتنوا بمحاربة بعضهم بعضا أيام خلافة الإمام علي ، جزاء تمرد معاوية وشقه وحدة كلمة الأمة المسلمة ورفضه الانصياع للإمام الشرعي . ومن خضم تلك الأحداث وما تمخض عنها من ملابسات متشابكة ، وماتولد عنها من قضايا معقدة متلاحقة ، فيما بعد انبثقت من خلال غبار تلك الصراعات السياسية أفكار ومبادىء أخذت لها حيزا في الوجود الفكري في المجتمع الإسلامي .

فعبدالله بن أباض كان واحدا ممن عركتهم تلك الأحداث وخرجوا منها باقتناعات معينة . فغدا يدعو الناس (المسلمين) إلى الكتاب والسنة ، لا يهاب الجبابرة ، ولا يحابي الظلمة ، ولا يداهن في الدين ، وكما أسلفنا فإن إمام المذهب (فقهيا) هو التابعي الكبير والعالم الجليل جابر بن زيد الأزدي البصري « العماني مولدا » وكان واحدا من الذين اعترف لهم ابن عباس بالباع الطويل في العلم ، لقد روى عنه البخاري ، و بذا يكون « قد جاوز القنطرة » على حد تعبيرهم .

غير أنه مما يؤسف له حقا أن المسلمين من بقية المذاهب ، ظلوا إلى سحاب نهار يومنا هذا يحملون انطباعات غير أخوية ولا إيجابية « عما يعرف بالفرق » مثل «الأباضية» «الزيدية» «الجعفرية» ، نتيجة أوهام مصدرها تخمينات وسوء ظن .

وكان من الممكن ألا يستمر ذلك طويلا . لأن كل ما تولد عن سوء فهم يمكن إزالته بالتفاهم ومبادلة الآراء .

غير أن تباين المواقف ، عندما يتصف بالأنانية ، فمن النادر أن يؤدي إلى اتفاق وتفاهم ، ذلك لأن « أهل السنة » ــ كأغلبية مطلقة من بين المسلمين ــ هم المطالبون بالإصغاء إلى شكاوى الأقليات «الفرق» وإتاحة الفرص لها لعرض حججها بروح رياضية دمثة ، غير أن هذا مما لم يحدث . فسرعان ما برى علماء منهم أقلامهم ليكتبوا عن الفرق بعنف لايقل عن عنفهم عندما يكتبون عن الخصوم من أهل الأديان الأخرى . فوصفوها بالفرق الضالة الهدامة التي على المسلمين محاربتها والحذر من أفكارها . وهي كتابات ــ في الواقع ــ ملؤها الوهم والطعن نابعين عن عدم الإخلاص . كما أنها كتابات لم تخل مما يدل على جهلهم بالموضوعات التي طرقوها . ولم يقرهم على ما قالوه المكتوب عنهم . فعجبي لا ينتهي من إنسان يضع نفسه « المقيِّم » لأعمال عباد الله ، يكفر من يشاء ، و يتوب على من يشاء ، فإن الإيمان والكفر ملك يديه يمنع هذا ، ويمنع ذاك . وكأنما الجنة مزرعة خاصة له يفتح أبوابها لمن شاء و يوصدها في وجه من يشاء .

ونظرا إلى كون هؤلاء (كتاب مقالات الإسلاميين) يعتبرون من كبار العلماء ، لذا أصبحت كتاباتهم ومقالاتهم المراجع الأساسية لمن يريد معرفة شيء عن الفرق . مما أتاح لمعلوماتهم الاستمرارية . فأصبحت منابع للأقلام المتأخرة . والحق أن معظم الكتابات المعاصرة تكاد تكون مجرد اجتراء لما سبق وكتبه الأوائل ، فالمكتبة الإسلامية على الرغم من إمتلائها بكتب ذات عناوين عصرية موحية بالحداثة . فإن المتصفح لها لا يكاد يجد فكرة جديدة ، أو رأيا مستنبطا بالاجتهاد بديعا ، فكلها نسخ ، ونقل ، ومسخ ، بالمد حينا ، والمط آخر ، والتحوير طورا . فنادرا ما يوجد كتاب يضع المراجع التقليدية ، التي فقدت طعمها ، من كثرة ما ليكت جانبا ، محاولا الإتيان بجديد في موضوع قديم وكأن هضم أقوال السلف والتشدق بها غاية العلم ومنتهاه .

والذي نرى أن الضرورة قد اقتضته هو الرجوع إلى مراجع الفرق وكتبهم التي كتبوها ، لمعرفة أفكارهم وآرائهم سليمة غير محكية على ألسنة غيرهم ، فإن مراجعهم متوافرة ، وفي متناول يد كل من يريد الاطلاع عليها .

قال السيد مصطفى بن اسماعيل المصري إن المذهب الأباضي نسبة إلى عبدالله بن أباض هو أقدم المذاهب تاريخيا وأوثقها مصدرا وأصحها تأو يلا وأحفظها للباب طهارة الدين الحنيف ، ونقاوته وسماحته وزكاوته . وعلى ذلك فليس ثمة مراء في أنه هو الطريق الحق الذي كان يمضي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة معه اهـ (١).

و يقول أبو ربيع سليمان الباروني « ظهر المذهب الأباضي في القرن الأول من الهجرة . فهو أقدم المذاهب الإسلامية على الاطلاق ، إذ أن إمامه المنسوب إليه عبدالله بن أباض التميمي هو من التابعين الأولين المعاصرين لعبدالملك بن مروان موطد الملك الأموي المشهور . وكانت لذلك مع هذا مراسلات نصائح غالية لعبد الملك تحتم عليه أن يعمل بأوامر الشرع ، فيعدل في الحكم بين الناس ليستوجب الطاعة التي يدعوهم اليها (٢).

وسالم بن حمود بن شامس السيابي السمائلي في كتابه « أصدق المناهج في تمييز الأباضية عن الخوارج » يقول : « الأباضية أمة من أمم الإسلام ، إمامهم عبدالله بن أباض التميمي المعروف ، زعيم ديني وإمام رضيّ ، شهر مقامه بين رجال الحق وزعماء الرشد ، لم يزل داعيا إلى الله جادا ، إماما مرشدا ، وليا لأولياء ، الله رضيا في دينه . لا يهاب الجبابرة ، ولا يحابي الظلمة ، ولا يداهن في الدين ، ولا يميل إلى أهل الأهواء والبدع . وهذه لهجة أهل الحق في الإسلام ، وسيرة الأتقياء الأعلام . فلما فشى خبره بهذا في الأمة الإسلامية ، وشاع نبؤه في أقطار الإسلام وعوالمه أضيف إليه من كانوا كذلك من الأمة ونسبوهم إليه . وهو كما ترى لم يكن إماما له مذهب خاص ولا مسألة واحدة في الدين (٣).

والمستر (دونالد هولي) في كتابه « عمان ونهضتها الحديثة » قال عن المذهب الأباضي ما لفظه : « إذا كانت البصرة المركز الرئيسي للفتوحات الإسلامية ، تتبعه غالبية أهل عمان » . و يقول السالمي المؤرخ العماني : « إن

---

(١) العقود الفضية في أصول الأباضية .

(٢) مختصر تاريخ الأباضية ص ١٩ .

(٣) أصدق المناهج في تمييز الأباضية عن الخوارج . ص ٢ ، تحقيق وشرح الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف : جامعة عين شمس .

الدين الحق هو أشبه بالطير ، وضعت بيضته في المدينة المنورة ، وفقست في البصرة ، ثم طار إلى عمان »(١) . إلى أن يقول : « تمسك الأ باضيون بمبادئهم التي اتخذت صيغتها وقالبها في الأصل من مدينة البصرة ، وهم يخالفون السنة والشيعة في أنهم لا يعتقدون بضرورة وجود إمام أو أمير دائم ظاهر للدولة الإسلامية . ولكن الاباضيين ظلوا ملتزمين بأنه عند وجود الرجل المناسب لولاية المسلمين ، فينبغى مبايعته وفق طريقة معينة .

وفي خصوص نشأة المذهب الأ باضي يقول ، و يقول الأ باضيون : إن مذهبهم قد نشأ ، و برز ما يقرب من مائة سنة من نشوء المذاهب الأ ربعة ، وهي مذاهب ابن حنبل وأبي حنيفة ومالك والشافعي . والأ باضيون محقون في قولهم هذا الخ (٢)

---

(١) دونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة ص ١٦٧ .

(٢) نفس المرجع .

نظرة شخصية في نسب المذهب

يفضل الأباضيون ــ رغم استقرار الاسم تاريخيا ــ أن ينتموا إلى جابر عنه إلى ابن أباض (٥) ، فيرون أن الأول هو الإمام الفعلي لهم فقيها ، وأن الثاني ما كان له من دور سوى الدفاع عن الرعيل الأول من اتباع هذا المذهب . وأنه ما كان يصدر من عمل إلا باذن الإمام الروحي الفعلي وهو جابر . وأن ذلك كان ــ تكتيكا متعمدا ــ من الأباضيين ؛ قصد إخفاء الإمام الحقيقي ، إتقاء سطوة الجبابرة من ملوك بني أمية وأمرائها . غير أننا ــ رغم تسليمنا بإمكان وقوع هذه الصيغة ــ نميل إلى رأي آخر مخالف عن سبب نسب المذهب إلى ابن أباض نفسه ، لا إلى جابر . فنحن نرى أن ابن أباض هو الإمام الفعلي للمذهب منذ نشأته .

وابن أباض كان ذا رأى اجتماعي وسياسي في كيف ينبغي أن تصاغ الدولة الإسلامية الناشئة الفتية . ولم يكن مجرد إمام روحي يعظ و يرشد و يذكر، إن نفعت الذكرى . كان ذلك ، وإلا يكون قد أدى ما عليه ، وهو التبليغ ، شأن الوعاظ في المساجد والقصاصين فيها ، كلا بل إنه اعتبر نفسه أحد أركان الإسلام وجنوده ، فلم يؤثر الإنكار باللسان والقلب ــ وهما أضعف الإيمان ــ فمشاركته لابن الزبير في الدفاع عن الكعبة ضد الجيش الشامي يشير بصراحة إلى أنه كان متورطا في الأحداث وضالعا في تلك الأهوال التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية أيامئذ .

فمهما استاء الأباضية في وصل إمامهم (ابن أباض) بحلقة الخوارج ، فإن من المعلوم أن ابن أباض كان واحدا منهم بادىء الأمر ، وكان ينتمي إلى معسكر الرفض ، وذلك قبل أن يختلف معهم في التفاصيل ، و يؤثر القعود ، فالنصوص التاريخية التي بين يدينا تقول : بأن زعماء « المحكمة » عندما رجعوا إلى البصرة من الحجاز جرى بينهم نقاش حول ما يجب عليهم فعله في تلك الظروف والتطورات ، فهل الخروج واجب أو البقاء مع المسلمين والتعايش معهم أفضل وأحد ، وأخيرا اتفق رأى قادتهم على الخروج وكان من بينهم نافع بن الأزرق ، وعبدالله بن أباض . غير أن ابن أباض سرعان ما غير رأيه : وذلك عندما «جن الليل وسمع» دوى «القراء

ورنين المؤذنين (١) وحنين المسبِّحين» «مما أثر عليه وانعكس على ما كان مضمرا تنفيذه من برامج . واستيقن أن القوم مسلمون ولا يجوز الخروج عليهم . وإن كان نوع إسلامهم ــ بالنسبة إليه ــ في حاجة إلى التقويم والتنقية ، ومن هنا قال لأصحابه : أعن هؤلاء أخرج معهم . فقرر القعود ورجع وكتم أمره . وهنا ــ في الواقع ــ انقسمت قيادة المحكمة إلى قيادتين : معتدلة ، ومتطرفة . فالمتطرفة أصبحت تعرف بغلاة الخوارج لتكفيرها باقي المسلمين وارتئاها جواز، بل وجوب الخروج عليهم ، ونتيجة للحروب التي خاضت ، والغزوات التي شنت عليها انقرضت ، وبخاصة إذا علمنا أنها لم تكن لها روافد تصب عليها ، وهي ــ إذاً ــ كانت في تناقص مستمر ، بدلا من التنامي والازدياد ، حيث كانت مرفوضة من قبل باقي المسلمين ، ومحاربة من قبل الدولة أيضا ، فضلا عن الانقسامات التي حصلت فيما بينها مما أفقدها القوة الكمية . فهذه العوامل لم تترك لها فرصة للبقاء . وحفظ النوع (إن جاز هذا التعبير عليها) .

وأما ابن أباض ــ ممّا لا ريب فيه ــ فإنه كزعيم لابدّ أن يبقى معه الذين رأوا رأيه ، وبما أنَّه بالأمس فقط كان أحد زعماء الخوارج ، فإنه اليوم ــ بعد انشقاقه عنهم ــ أصبح رئيس الجناح المفضَّل للبقاء ، فتلقائيا ينعقد لواء الرئاسة له ، ونحن نستطيع التصوُّر بأنّ (المحكمة) كانوا من الكثرة العدديّة بمكان ، كما كانوا على جانب عظيم من قدرة التأثير ، لما لهم من قوة المنطق ، وسحر البيان . ويكفينا دليلا على هذا أنهم ــ قبلئذ ــ كانوا قد أفحموا عبدالله بن عباس سفير الإمام عليّ إليهم وخصموه ، وهو من هو علما (٢). وهنا يستمرّ دور ابن أباض ، وتتعاظم مهمته ، وهي الدفاع عن آرائه وخلفه ، وهنا يستمرّ دور ابن أباض وتتعاظم مهمته ، وهي الدفاع عن آرائه ، وخلفه أتباعه المعجبون بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية بعد أن انفصل عن القيادة العامة للخوارج . فهنا كان عليه أن يقاتل في جبهتين . فهو

---

(١) انظر العقود الفنية في أصول الأباضية . قارن نشأة الحركة الأباضية .

(٢) وهناك من يرتاب في صحة هذه المناظرات التي قيل إنها جرت بين الخوارج وابن عباس فمهما يكن من أمر ، فإننا نعلم أن الإمام عليًّا ــ مع بلاغته ــ لم يستطع ثني الخوارج عمّا اعترفوا فعله ، وأن ابن عباس اعتزل معسكر الإمام . ويقال : إنّ ذلك حدث نتيجة اقناع الخوارج له .

على الرغم من انفصاله عن الخوارج فإن ذلك لا يعني أنه هادن الدولة وتبنى فلسفتها بل إنه باق على رأيه نحوها فلم يتغير . و يدافع عن موقفه الجديد ، و يبرره للخوارج ر يثبت صحته ، فهي مواقف لا شك تطلبت منه أن يقول ، و يقول كثيرا .

ففلسفته ــ إذا ــ كانت قريبة إلى أذهان الناس ، وآراؤه كانت قابلة للنقاش من قبل السواد الأعظم من جمهور المسلمين ، لا كآراء الخوارج المرفوضة جملة ، وأخرى يجب القول بها ، وهي أن الناس كل الناس كانوا قد تعبوا من المشاكل ، وسئموا الثورات ، وسهكوا من سفك الدماء . فليس حتى من فرط الذكاء القول بأن معظم ، بل الأغلبية المطلقة من علماء الأمة وعوامها ــ كانوا يكرهون الحكم الأموي و يرون فيهم حكاما استبداديين ، و بعيدين كل البعد عن الروح الديني والشريعة المحمدية . ولئن كانت الخوارج قد غالوا في تمسكهم في الدين ، حتى عسّروا على الناس ، ونفّروهم من أنفسهم . فإن الملوك والأمراء من الأمو يين ــ قد غالوا في استخفافهم للشريعة ، وأكثروا في الأ رض الفساد وقتلوا الناس بالظنة . إذاً : فالناس ــ كما قلنا ــ كانوا بين فكي الكماشة ، الخوارج المغالية المتطرفة من جهة ، والحكومة الغاشمة من جهة أخرى .

لقد كان من بين العلماء الذين لم يخرجوا ممن يعتد بهم أمثال سعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وابن عباس وغيرهم وغيرهم كثيرون . وأما ابن أباض ، فإنه ــ فيما ظهر ــ كان ذا آراء مختلفة مع هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم . وأما جابر بن زيد ، فآراؤه على مايظهر كانت آراء غيره من علماء البصرة من التابعين ، وإن كانت تتفق مع آراء ابن أباض / استنادا إلى الأ باضية / .

وهذا هو سرّ تأثير ابن أباض في المذهب أكثر من جابر بن زيد وغطت شهرته شهرة جابر . بالنسبة للقيادة الفكرية ، لأنه ــ قبل ــ كان قد برز على مستوى النص . وهذا لا يتناقض مع كون جابر مرجع القوم مذهبيا ــ في وقت لاحق ــ(٠) بعد أن أخذت المعارضة الأ باضية تنتظم في سلك التكتل والتحزب المنظم ، وتبلورت آراؤها وفق التطورات إلى أن أخذت طابعا متميزا ، له صفة وهو ية متميزتان ، ثم

شيئا فشيئا ، شرعت الأفكار السياسية تذوب وتضمحل ، وتحل محلها المسائل الفقهية ذات الطابع الشرعي المحض . فيستحيل مذهباً فقهيا خالصا يعني ــ رئيسيا ــ بالمواد الشرعية وشرح النصوص القرآنية التشريعية والأحكام والعلل والأصول الخ ..

فنحن نرى أن جابراً هو الذي انضم إلى الحركة الأباضية . فالقرائن تؤيد ذلك(٥). فتوطد العلاقة بين الرجلين بتلك السرعة بعد التقائهما ــ يوحي بأن جابرا كان يتتبع أخبار (جبهة الرفض) المتمثلة في الخوارج . فلولا غلوّ الخوارج لانضم إليها معظم العلماء . وآية ذلك أنه عندما رأوا شخصا برز من الخوارج وانشق منهم ، ثم دعا إلى أفكار معتدلة ومنطقية لم يتردد جابر في الانضمام إليه ، لأنه مهما تكن آراء ذلك الشخص ، فإنها سوف تكون أحسن من إسلام الأمويين وولاتهم .

إذاً ، فلو أن الخوارج كانوا قد انتهجوا نهجا ليّنا يسيرا لالتف الناس حولهم بغية إزالة الأمويين . غير أن الناس رأوا أنه ليس هناك كبير فرق بين إفراط الخوارج ، وتفريط الأمويين وتحاشوا منهما معا .

وأثناء ذلك كان ابن أباض يعيد النظر في مواقف الخوارج السابقة ، ويشذب مواقفها على ضوء اقتناعاته الجديدة . فكان أن انضم إليه جابر فجاء غيثا على زرع ، فجابر قضى عمره كله في العلم والتعلم والتعليم ، فكسبه إلى جانب ابن أباض كان نصرا لهذا الأخير .

بالإضافة إلى رصيده القومي الضخم «قبيلته» فكسبه إلى جانب العالم القادر على تفريع المسائل وتنقيتها وشرح النصوص وتفسيرها وإلقاء الأضواء على غوامض المسائل والمستغلق من المعضلات فرصة عظيمة لجابر لإيصال آرائه إلى أكبر قدر ممكن من الناس عن طريق ابن أباض ، وهكذا كان كل منما مكملا للآخر . ومما يزيدنا تمسكا بهذا الرأي أي ــ كون جابر منضما إلى مدرسة ابن أباض الفكرية ــ هو أن شيخه ــ أي شيخ جابر وهو عبدالله بن عباس ــ سبق أن خاض نقاشا «فلسفيا» ــ/اسمحوالي/ــ بعد انفصال المحكّمة ، واقتنع بآرائهم ، رغم عدم مناصرته إياهم ، وهو لاشك كان يتحدث عنهم بشيء من الإجلال لثبات عقيدتهم وجرأتهم في الحرب فهي أمور كانت تستهوي المسلم ، والإسلام مازال طازجا . وإذا

علمنا أنه كان هناك إعجاب متبادل بين الشيخ ــ ابن عباس ــ والتلميذ جابر بن زيد ، فهمنا ، بالإضافة إلى ما سبق من عوامل ــ وجود استعداد نفسي لدى جابر للتفاهم مع ابن أباض على ضوء تمهيد ابن عباس للطريق ، والذي نقصده بالتمهيد هو الحديث المستمر المفترض من ابن عباس عن الخوارج ، فانضمام أبي الشعثاء لحركة ابن أباض كان قد تم بتشجيع من ابن عباس معنوي ــ فعبدالله بن عباس هذا في الواقع ــ كان مناصراً لهذه الحركة ، وإن لم يصدع برأيه لأن اللياقة والعلاقة الدموية كانتا تحولان دون المجاهرة بانضمامه إليهم . وعند إبداء بعض من المحكمة مرونة أكثر انضم إليهم جابر تلميذه ، وكان هناك أكثر من عامل مشترك بين ابن أباض وجابر وهو مشاطرة الإحساس والشعور بأن بني أمية قد استخفوا بالدين وحولوه إلى ملك عضوض باتباعهم سياسة العنف والتعسف والجور على الرعية . ولا يستغرب أيضا أن يبغض جابر بني أمية مسايرة لأستاذه ابن عباس ــ كعامل ثانوي بالنسبة لجابر ــ فابن عباس لا شك كان ــ في ألطف تعبير ــ من خصوم الأمويين لأسباب دنيوية وأخروية . دنيوية ، لأنهم استأثروا بالأمر دون بني أعمامهم من الهاشميين ، فليس عجبا أن يرى جابر رأي أستاذه ، وهو هاشمي . وأخروية ، لأنهم حولوا (النبوّة) من خلافة إسلامية إلى ملك كسروي لا يمت إلى الدين بصلة إلا بقدر ماهو شعار للدولة(٥).

فنحن مازلنا نرى أن ابن أباض قبل لقياه جابرا كان قد شبع شهرة . فعند التقائهما التقاء فكريا كان ابن أباض منهمكا في شرح مبادئه وأفكاره وهي مبادىء تماطرت وتضافرت في رأسه .

١ ــ وهو من جملة « الذين خالفوا عليا في قبول التحكيم ثم تحولوا عنه » . فهذا يحتاج إلى شرح وتفسير دائمين للناس لتبرير المواقف .

٢ ــ أنه مخالف للدولة الأموية في سياستها للرعية وسياستها الدينية أيضا . وهذا ــ بدوره ــ يحتاج إلى شرح وتفسير دائمين .

٣ ــ انفصاله من الخوارج الغلاة وأصبح واحدا من أعدائهم . وهذا يحتاج أيضا الى تبرير ومناقشات ومحاجّات ليوضع المسوغ للقعود . ويحاول دحض وتفنيد

آراء وأفكار رفاقه القدامى الذين رأوا في الخروج الصواب ، فعدم خروجه ــ هو بالذات ــ بعد خيانة ومهادنة للمشركين «المسلمين الآخرين» .

فهذه الامور مجتمعة جعلته مشغولا بالدفاع في حين أن الإمام جابرا تفرغ لتفقيه باقي الاتباع ــ أتباع المذهب ، وتكوين الخلايا السرية للحركة «بلغة العصر» . ومن هنا وجد زعيمان للمذهب ، الزعيم السياسي العتيد للحركة ــ وهو ابن أباض ، والزعيم الجديد الروحي لها ، وهو الإمام جابر . وبما أن العلم والسياسة إذا اجتمعا فإن العلم يعلو ولا يعلى عليه ؛ لأن العلم من طبيعته البقاء والسياسة بنت ساعة ومن طبيعتها الاندثار والاندراس . لأنها بنت أحداث وتطورات معينة تموت بموتها . لذا فإن آراء ابن أباض إما أن تكون قد ماتت بموت الأحداث والأسباب ، وإما أن تكون قد ذابت من خلال آراء وأفكار أبي الشعثاء العلمية الفقهية المدونة . وهكذا .

غير أنه على الرغم من بروز اسم جابر وحب الاتباع له وإعجابهم بعلمه . فمن الصعب ــ فنيا وإداريا ــ على منتم إلى حركة تدعو الى أيدولوجية معينة أن يقفز معه اسمه فورا نحو المقدمة ، ويحتل مركز الصدارة في حين أن المؤسسين أحياء يرزقون ، اللّهم إلا إذا كان انقلابا .

وهنا يأتي الدارسون للحركة بحجج كثيرة كعلة لبروز اسم ابن أباض كقائد للفرقة في حين أن اسم جابر بن زيد ظل مستورا فيرون السبب هو :

١ ــ لأن الفرقة كانت في مرحلة الكتمان ، فكان على العالم ــ تقديرا للظروف ــ أن يخفي اسمه ، لأنه هو المنظّر للحركة والموجه لها وأبوها الروحي .

٢ ــ تصرفات ابن أباض للدفاع عن المذهب كانت بمثابة أعمال صادرة عن جابر نفسه لأن الأول كان يصدر في أعماله بأمر الثاني .

٣ ــ أن ابن أباض كان ينتمي إلى قبيلة «تميم» الكبيرة جدا فكان بوسعه ان يجاهر بالعداء للدولة الأموية ، و يقسو عليها بانتقاداته مسندا ظهره الى قبيلته ومحتميا بها ومعولا على قوتها .

فهذه هي العلل التي قالوها . غير أني لا أرتاح إليها ولا أسلم بسلامتها ، فإني أرى أن غيرها أصوب وأقرب إلى طبيعة الأشياء في رجال مثل جابر بن زيد .

فأرى أن جابرا لم يبرز اسمه وقتئذ ليس لخشية بطش الامويين ــ رغم أني لا أنكر احتمال عدم مجاهرته بآراء مضادة لهم ــ بل كتموا اسمه لأن اسمه لم يبرز كأباضي إلا لاحقا . فمسألة ــ كتمان العقائد ــ(٥)أجد شيئا في نفسي لقبولها . وإذا علمنا أن سلفنا الصالح كانوا مستعدين دوما لمواجهة أي طارىء مهما اشتد في سبيل الله ، وإيثارهم دوما الأخذ بالعزائم دون الرخص ، علمنا أن «حكاية» كتمان العقائد هذه حكاية قابلة للنقاش لافتقارها إلى مايؤيدها كقرائن .

فجابر بن زيد كان في الواقع واحدا من بين رجال يشار إليهم بالبنان علما وفضلا ، فهم ماكانوا ليلجئوا إلى كتمان أمورهم ، وهم الخاصة ، وقادة العامة ، ومحط أنظارها . فنحن نعلم أن سيدنا الحسين بن علي خرج من الحجاز إلى العراق ؛ تلبية لدعوات أهل العراق مشددين له المواثيق والعهود بالطاعة والمناصرة . وأنه إن رفض القيام بعد تردّى الأوضاع الدينية ، فسيكون المسئول أمام الله لضياع ماضاع فذهب رضي الله عنه مع تحذير المحذرين له ، ثم كانت النتيجة أن قتل . ولم يأخذ بالرخصة . بل ــ بعد الحسين ــ لقد قرأنا تاريخ كثير من أصحاب المذاهب الآخرين ضربوا وعذبوا ؛ نتيجة مواقف لهم وآراء ، فمنهم من مات متأثرا بالعذاب الأليم كابن حنبل وأبي حنيفة ، ولم نأخذ الأمثلة من بعيد وهناك مثل قريب بنا . هو موت الشهيد سيد قطب بعد أن رفض الأخذ بالرخصة ، وآثر العزيمة علما بأن (الطغمة) كانت(١) قد طالبته بتقديم رسالة استرحام فرفض .

وهنا بهذه المناسبة يحلو لي أن أنقل للقارىء الكريم قولة مشهورة للإمام حسن الهضيبي عندما استأذنه بعض الناس في الأخذ «بالرخصة» بعد اشتداد محن الإخوان المسلمين في مصر ، فقال : «أنا لا أكره أحدا على الأخذ «بالرخصة» والوقوف معنا ، ولكني أقول لكم ، إن الدعوات لم تقم يوما بالذين يأخذون(٢) بالرخص» .

---

(١) انظر : أيام من حياتي : زينب الغزالي ص ١٨٣ ــ دار الشروق .

(٢) أيام من حياتي : زينب الغزالي ص ٢٧ ، دار الشروق .

ما أبلغ هذا الكلام وأصدقه ، أروع به .

مع العلم أن جابرا ومع ما يقال عن كتم حقيقة شخصه ، فإنه حبس وعذب وحتى عندما أفتى «بمسألة الخنثى» فإنه كان قد جيء به من السجن ، فقد قال لهم يومئذ : «أتستفتونني وفي رجلي قيودكم»(١) وعليه فإنه لم يكن هناك مبرّر لكتم العقائد خشية التعرض للأذى، لأنه كان قد وقع فيه .. ولماذا الخشية منه . وإذا قبلنا المنطق القائل بأنه كان يخفي مبادئه الحقيقية ويجاهر بأخرى ، فإن القائلين بذلك يكونون قد لصقوا به تهمة ممارسة «التقية» وهو سلوك يعيّرون به الشيعة و يقولون عنهم إنهم يمارسونه و إنه ضرب من النفاق(٥) كما أنه نوع من «ذي الوجهنية» مع أني لست مع القائلين بهذا الرأي الساذج ، فظروف الحياة تضطر الإنسان أحيانا إلى أن يمارس أسوأ أنواع التقية . فمن منا لم يمارس(٢) التقية يوما ؟ والذي نراه صحيحا هو أنه ماكان بارزا كأباضي رغم أنه كان بارزا كعالم ومعلم . وشكليا ماكان بوسع اسمه أن يضارع اسم المؤسس في التنظيم . نعم فالحركة الأ باضية أيامئذ لايمكن أن يطلق عليه اسم «مذهب» مهما كان لأنها ــ كحركة ــ ما كانت قد نضجت وتغربلت وأخذت قالبا مذهبيا فقهيا محدود المعالم كما هو اليوم ، لأن الفقه وكثيرا من المسائل الأخرى كلامية وفلسفية ــ ما كانت قد تميزت وهذبت وأصبحت علما له حدوده وتعاريفه الدقيقة . فالناس في أمور دينهم كانوا يعتمدون على النصوص القرآنية وسنة النبي ــ قولا وعملا ــ وأعمال الصحابة مع بعض اجتهادات المجتهدين من التابعين ، وقد لا ننكر أن جابرا كان أقدر على تفريع المسائل ، والنظر في أبواب الفقه من ابن أباض . لذا اشتهر اسمه فقهيا في حين أن ابن أباض كان ركن أركان الحركة ومرجعها .

---

(١) العقود الفضية في أصول الأ باضية . ص ٩٩ .

(٢) انظر ، المهزلة في العقلية البشرية : للدكتور علي الوردي . وطالع كتاب «الصلة بين التصوف والتشيع» فصل التقية .

غير أن المؤرخ الأباضي محمد علي ديوز يرى أن الأمويين هم الذين أطلقوا عليهم «الأباضية» . هذا الاسم نسبة إلى عبدالله ابن أباض . لأن الأخير كان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم ، كما أن الأمويين لا يردون نسبة هذه الفرقة إلى جابر ، حتى لا يجذبوا إليهم الأنظار ولا يبدون في هالة جابر المشرقة . فتميل إليهم النفوس ، فنسبوهم إلى عبدالله بن أباض ، والحق أني لم أجد مسوغا لقبول هذا الكلام ، والذي أراه صائبا ــ كما قلت كثيرا ــ هو أن المذهب الأباضي ــ كمذهب ــ لم يكن قد تكوّن بعد ، وإن كان قد تكونت نواته فكان لم يتعد حدود بعض المسائل المتداخلة كتداخل سائر الأمور في تلك المرحلة المبكرة في التاريخ الإسلامي حيث كانت المسائل ذات النزعة السياسية البحتة تلبس بألبسة دينية لجلب الجماهير .

فرغم حرصي البالغ على إعطاء الفرق حقها ، وخاصة الأباضية ، في هذا المجال ، فإنه لا يسعني إلا إبداء مخالفتي لهم ، فأنا أرى أن الأباضيين قد بالغوا كثيرا في لصق جابر إليهم(٥)» وفي زعمي ، أنها محاولة /بوعي تاريخي/ لإزاحة «شبح الخوارج» عنهم لعلمهم في أعماقهم أن ابن أباض كان أحد الخوارج[١].ولعلمهم أيضا أن الناس من غيرهم يعلمون ذلك . ولا يمكن محوه ــ كحقيقة واقعة ــ من ذاكرة التاريخ . غير أني أعود فأقول إن التاريخ وإن ذكر خارجية ابن أباض ، إلا أنه هو نفس التاريخ الذي ذكر بأنه خالفهم بالرأي أخيرا ، فانفصل عنهم وبين فساد رأيهم ــ إذاً ــ فلم يعد خارجيا .

وأما القول بأن الأمويين هم الذين لصقوهم بابن أباض ، لا إلى جابر حسدا من عند أنفسهم ، فقول لا أعده أنا من الأقوال الراجحة . وهنا يحلو لي أن أدافع عن الأمويين . فالأمويون لم يكن لهم أدنى مصلحة في ربط أو إبعاد اسم جابر بالحركة الأباضية . فنحن نرى أن الأمويين كانوا يسمون شيعة الإمام علي «شيعة علي» ولم ينسبوهم مثلا إلى : عمار بن ياسر ، أو سلمان الفارسي ، أو غير هذين ممن لاينكر تشيعهم لعلي ، ولا ينكر أيضا أنهم دون الإمام علي جاها ومرتبة وعلما . فلماذا

---

(١) انظر : نشأة الحركة الأباضية . قارن بـ : الأباضية في موكب التاريخ

يفترض بأن الأمويين حسدوا الأباضيين ؛ لذا لم يسموهم باسم إمامهم الحقيقي — جابر — وعدلوا إلى تسميتهم باسم أحد تلاميذه — ابن أباض — ؟! وكان الأولى — والحالة هذه — أن يحسد الأمويون الشيعة ، فينسبوهم إلى رجل دون علي بدرجات . لأن عليا فوق جابر في كل شيء من الأشياء وآلق هالة منه ، وجابر دون علي في كل مجال من المجالات . فأمويا ، إن الإمام عليا وشيعته أخطر وأبغض من جابر وأتباع جابر .

وكلمة أخرى أقولها : وهي أنه بشيء كثير من التجوز والتسامح نقبل قول الأباضية بأن إمامها هو جابر بن زيد . اذ الحقيقة أن التابعين أمثال جابر وسعيد بن المسيب والحسن البصري كانوا للأمة كلها فنحن لا نرى أن يقال عن أحدهم : إنه كان لهذا المذهب دون ذاك . اللّهم إلا إذا كان المسوغ هو أن غالبية الأباضية هم عمانيون ، والإمام جابر عماني ، لذا وجدوا أنهم أولى به من غيرهم اقليميا .

وهذه الشيعة تنسب عبدالله بن عباس إلى نفسها وتدعيه لقرابته عليا ، فنحن لا ننكر تشيعه ، إذ ما كان بوسعه إلا أن يتشيع لعلي ، لأنه في معرض الاختيار بين علي ومعاوية فلابد أن يختار عليا . فالأباضية تقول إنه إستاذ إمامها — جابر — وهو بالتالي أستاذها (٥) والحق الذي نراه هو أن الصحابة الكرام والتابعين ما كانوا أصحاب مذاهب ، ولا ينتمون إلى أى مذهب ، لأن المذاهب قد تكونت بعدهم وبالتالي فإنه لا معنى لنسب أحدهم إلى مذهب معين فقهيا ، فكل المذاهب الحالية باختلافها بنيت على ضوء الأحاديث التي رووها ، أو تفسيرات أو اجتهادات لهم .

دعوني أخيرا أكن صريحا وهو أن معاصري جابر كانوا يعلمونه كأحدهم لا كأباضي (٥) . فلو أن جابرا كان مشهورا في البصرة — كأكبر مدينة يومها في العالم الإسلامي — على أنه قائد لإحدى الفرق لفسدت سمعته . فنحن نرى أن أحدهم ما كانت تقبل منه رواية لأنه باصطلاحهم — يتهم بالتشيع — إذا فلو كان جابر من الذين يتهمون بالتشيع أو يرى أفكارا « لإحدى الفرق الضالة (٥) » لما كان اسمه في الوسط العلمي كاسمه اليوم .

اخواني الأعزاء في الإسلام : تعالوا نقل إنه لا تثريب على الأباضية إذ كان إمامها عبدالله بن أباض ، كما أنه لا تثريب ولا غضاضة على المالكيين إذ كان

إمامهم مالك بن أنس ، دعوا التعصب والأوهام والجدال . فخذوا القرآن والسنة فكونوا عباد الله لا إخوان فرقة . والسلام عليكم .

فعندما تكوّنت الفرقة الأباضية كانت قد مرت بمراحل تكوينية كثيرة ، وهي أمور طبيعية لكل تنظيم شبه سرى : فحينا دعوا ، بـ « المسلمين » وطورا بـ « جماعة المسلمين » وتارة بـ « أهل الدعوة » وو و الخ .. فإني أرى أن هذه هي الجماعة التي كانت مع ابن أباض عند وبعد انفصاله من الخوارج الذين آثروا الخروج . فالأمويون كانوا يعلمون أن تلك الجماعة تحت قيادة عبدالله بن أباض ، فلذا كانوا يضيفون تلك الجماعة إليه « ابن أباض » كتمييز لها من الخوارج الخارجين على الدولة والمسلمين جميعا ، والقول بأن ابن أباض كان يدافع عن « الأباضية » جهرة لانتمائه إلى قبيلة تميم القوية ، قول غير سديد عندنا ، فإننا نرى لذلك تفسيرا أقرب إلى المنطق .

ذلك لأنه عندما انفصل ابن أباض عن الخوارج الغلاة ، وآثر الجنح إلى السلم ، والاقناع بالنقاش لا بالمسايفة ، كان بذلك قد تخلى عن مبدأ « العنف الثوري » الذي كان يدعو إليه الخوارج ولا يؤمنون بسواه وسيلة للاقناع . إذا ، فانتهاجه نهج « المعارضة المعتدلة » جعلها معارضة كلامية غير ذات خطر . لقد أصبح هو ــ كباقي الصالحين ــ من الأمة الذين ينكرون على الولاة والأمراء أمورا بدون أن يروا الخروج عليهم .

ولقد رأينا الحكومة الأموية تحارب الخوارج أصحاب مبدأ « العنف الثوري » أو التكفير بالقوة إلى نهاية عمر العهد الأموي . في حين أنها ــ أى الحكومة الأموية ــ كانت تهادن القعدة ــ وان كان أسلوب معاملتها للقعدة كان يختلف باختلاف أمزجة الأمراء من قبل الأمويين في دمشق وفق تصرف القعدة أنفسهم .

والصحيح أن القعدة كانوا قد أصبحوا ــ بصيغة من الصيغ ــ أسرى في يد الدولة . فالحكومة كان بوسعها الانقضاض عليهم متى ما رأت أنهم بدأوا يتخطون حدود المعارضة المعقولة . فنحن ــ بعد إجازة من القارىء الكريم ــ لو نظرنا إليهم بمنظار أحداث القرن العشرين ، لاتضحت الأمور جلية في معادلة بسيطة .

نعم ، لنأخذ : إيران الشاه . كمثل رائع في الشدة والقمع للخصم ، ــ وهناك كثيرون أمثاله في العالم الإسلامي ــ ومن المصادفات أن المعارضة الدينية الإيرانية ــ قبل نجاح الثورة ــ كانوا يطلقون عليه اسم « يزيد العصر » نعم ، لقد رأينا أن حكم الشاه ــ رغم جبروته ــ قد كان ترك بعضا من المعارضين . لقد كان في ظله ــ رحمه الله ــ ثلاثة أنواع من المعارضة هي :

١ ــ معارضة رجال الدين الإسلامي ، ممثلة في شخص آية الله الخميني فهي معارضة جادة ، فرأى الشاه أن بقاء الخميني خطر على الشاهنشاهية . وحاول القضاء عليه ، وأبعده خارج إيران ، وظل سماحته يعمل على إسقاط الشاه حتى نجحت مساعيه فكان له ما أراد وهو القضاء على الشاه .

٢ ــ معارضة الشيوعيين : فهي في الواقع ــ لو كانت منيعة السور شامخة القلاع ــ معارضة خطرة . غير أنه كان من اليسير تميعها ، نظرا لسهولة بث عناصر دخيلة فيها ، و بالتالي الاستحواذ على قيادتها وكشف خططها و برامجها فجعلها متقوقعة في نفسها . تكثر من الشعارات الثورية واستخدام المفردات ذات المدلولات الراديكالية ، بدون أن تكون قادرة على ترجمتها عمليا . لأنها في الواقع تقاد من قبل أشخاص هندسيين وعناصر دخيلة خادعة تلعب دورين مزدوجين ، وهذا عين ما حصل عندما نجحت الحكومة في تسريب عناصرها من ــ السواك ــ إلى الحزب الشيوعي الإيراني ، فأصبحت أسرارها ــ تلقائيا ــ في يد الدولة . ومع ذلك فإن الحكومة قد ظلت ترقب حركاتها وسكناتها . وقمعت كثيرا من عناصرها .

٣ ــ معارضة اليسار : وهي المعارضة المكتفية بالتصاريح الرنانة والمواقف ذات المردود السياسي جماهيريا ، وهي ليست أكثر من تحذير وتسكين . وهذا النوع من المعارضة في الصحيح تخدم النظام خدمة كبرى ، لأنها لا تؤثر على الأحداث لا سلبا ولا إيجابا لعدم وجود برنامج واضح محدد أو غاية منشودة تسعى إلى تحقيقها . بل إنما هي معارضة لأجل المعارضة كغاية ليس غير . وهي في الواقع معارضة تكرس الألم الذي يعانيه الشعب . وتنفث رقاها على جروح الشعب ، ممنية له باندماج الجرح يوما إن عاجلا أو آجلا ، غير أنها غير صادقة في نفسها لأنها تعلم أن حياتها

مرهونة ببقاء النظام ، فموت النظام على يد معارضة فعلية صارمة صادقة يعنى موتها هي أيضا وهذا ما حدث للمعارضة الثالثة في إيران ممثلة في شخصى الدكتور السنجابي والدكتور بختيار . وهما كانا معارضين للشاه غير أنهما لم ينفيا ، ولم يلحق ولم تقترب بهما « فرقة الموت » التابعة للبوليس السري « سواك » .

فهما في الواقع كانا يخدمانه ــ الشاه ــ حيث يعلمان أو لا يعلمان ، لأن الشاه كان يباهي بهما كثوريين حقيقيين وطنيين معقولين مثقفين . و يقدمهما إلى العالم كعلامة للديمقراطية . إذ لولا الجو الديمقراطي .. بالمفهوم الشاهي ، لما تمكنا من القيام بالمعارضة .

« أقرأ بعصرك ما الأهواء تكتبه : تنبئك عما مضى في سالف الدهر»

فهذا المثل ــ عزيزي القارىء ــ ضربته ، وهو في عصرنا كتقريب إلى الأذهان لأصل إلى حقيقة وهي أن معارضة ابن أباض بعد انفصاله عن ــ المحكمة ــ لم تكن معارضة تشكل أية خطورة على الدولة . بل ــ بالعكس ــ لقد استفادت الدولة كثيرا من وجوده كمعارض ، فلم تقتله إذ لم يكن ثمة أى معنى لقتله .

وأما وجه الاستفادة فإنه حيث إن الدولة كان تقاتل مجموعة شرسة من الأشاوش الأشداء من الخوارج ، فإن انقسام هؤلاء يضعفهم . كما أنه لم يكن من مصلحة الدولة أن تتحرش بابن أباض فيلحق بأصحابه القدامى فيشكلوا قوة خطيرة . ولسان الحال سوف يقول : إن الأمويين في الحقيقة غير مبالين إلى حقن الدماء ، وهو إحساس كان سيساعد مناوئيهم ــ وهم عديدون ــ على تأليب الناس على رؤوسهم .

إذاً ، فترك عبدالله بن أباض غاديا رائحا في بحبوحة السلام يبدي ملاحظاته الانتقادية كان أفضل لبنى أمية سياسيا لأنهم يكسبون وراء تلك السياسة اللينة أشياء كثيرة (٥) منها :

١ ــ ليبرهنوا للناس أنهم لايحاربون ــ الخوارج ــ رغبة في الحرب وسفك الدماء ، ولكن السبب هو أن هؤلاء الخوارج خارجون عن الإسلام والجماعة وطاعة أولى الأمر .

٢ ــ أن قعود القعدة لدليل على سلامة رأى باقي المسلمين ، ولدليل آخر على خطل رأى باقي الخوارج من الغلاة .

٣ ــ فهنا فقط في هذه النقطة نستطيع القول بأن الحكومة الأموية تركته لأجل كسب قومه من بنى تميم متجاهرة بذلك ، فالحكومة هنا ستوهم قومه بأنه « لولا الاحترام » لكان لنا شأن به كشأننا مع باقي الخوارج . فيقول هؤلاء « زادكم الله سلطانا ، وأكرمكم كما أكرمتمونا يا بني أمية » .

والصحيح الذي لا مراء فيه هو أنه لو كان ابن أباض بعد قعوده يشكل خطرا على بنى أمية لقتلوه أو لتخلصوا منه بوسيلة أو بأخرى ، ولا تستطيع أية حامية أن تحميه . بل لكان قتله باسم « حماية أمن الدولة » .

فالأمويون ــ قبل ــ كانو قد قتلوا ــ حسين بن علي ــ وهو أكثر أهمية لدى العرب والعجم ــ كمسلمين ــ من عبدالله بن أباض . فلم يعاقبهم معاقب رغم وجود بني هاشم ، بل رغم وجود باقي المسلمين . فالحسين ، إسلاميا ، في مركز فوق القبلية لأنه هو .

« تنـــاقض »

وقعت الأباضية في تناقض واضطراب بشأن تقييم مركز عبدالله بن أباض في المذهب . فهم يريدون إظهاره بمظهر العالم المتبحر في العلوم الإسلامية ليبرروا في لا وعيهم تبعيتهم له كما يتبع المالكيون مالكا لأنه عالم يستحق الاتباع . والحنفيون أبا حنيفة والشافعيون الشافعي .. الخ . ولكن نظرا لرغبتهم الشديدة في «تخفي» ابن أباض مذهبيا ، والارتباط بجابر نظرا لاعتراف كل المذاهب به عالما ثقة ليشملهم هذا الاعتراف جعلهم يقعون في تناقض في تقييم شأن الرجل . فالمسلمون الآخرون لم يعترفوا بابن أباض عالما موثوقا فيروى عنه العلماء الأحاديث لأنه كان بادى « الأباضية » عكس جابر الذي ينكر السنيون أباضيته في حين يصر الأباضيون على أباضيته (سرا) إذا ، ومن هو منهما أعلى مقاما من الآخر ، علميا في المذهب .

فالاباضيون يقولون إنه ما كان ليصدر عنه أى عمل إلا بمشورة جابر ، أو باذن منه . غير أنه من الصعب قبول هذه اللهجة . في حين أن الأباضيين أنفسهم يصفونه بأنه « فارق جميع الفرق الضالة عن الحق وهم المعتزلة والقدرية والصفارية والجهمية والخوارج والروافض والشيع . وهو أول من بين مذاهبهم ونقض فساد اعتقاداتهم بالحجج القاهرة والآيات المحكمات النيرات والروايات النيرات الظاهرات (١) .

والشماخي يقول « وفي حفظي أنه يصدر في أمره عن رأي جابر بن زيد » .

فعجب أمر هذا الرجل الذي يكون إمام أهل التحقيق ورئيس من بالبصرة الذي ناظر الخوارج المتطرفين ، وقارع الشيعة بالحجة ، وناظر القدرية والمعتزلة ورئيس القعدة . أن يكون هذا هو مركزه علميا . وأن يكون في الوقت نفسه لا يصدر من أعمال وسلوك إلا بأمر من الإمام جابر ، أو يقال : ان دوره في المذهب دور إعلامي ثانوي ، ليس له صلة بأسّ أساس المذهب فمن المستحيل ــ علميا ــ أن يكون تلميذا لجابر ليلا ، ومناظرا للخصوم نهارا . فرأى الشماخي على ما يظهر غير صائب .

---

(١) العقود الفضية .

فنحن لم نسمع بأن جابرا نفسه ما كان يصدر إلا بأمر من ابن عباس . رغم أن جابرا نفسه يعترف بالتلميذية لعبدالله بن عباس و يعترف بأن ابن عباس يفوقه علميا . ولولا ذلك لما قال « أدركت سبعين من أهل بدر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فحو يت ما عندهم إلا البحر . يعنى ابن عباس (١) .

فنحن نرى ــ ومن جديد ــ أن زعامة ابن أباض « للفرقة » استمرت حتى عندما اختلفت القعدة أنفسهم في البصرة ، وانشقت السفارية عن الأ باضية أى أن زعامة ابن أباض قد بقيت على فرقته . وعليه فما جابر إلا عضو انضم إلى الحركة بعد تكونها .

جاء في شرح منظومتي « أنوار العقول » وكشف الحقيقة المسمى « بمشارق أنوار العقول » في ترجمة للمؤلف بقلم الشيخ خالد مهنا البطاشي قوله : ولئن سمانا التاريخ فرقة الأ باضية كما لغيرنا من الفرق أئمة فإن إمامنا الحق الذي لانهتدي بغير هديه ، ولا نقلد سواه إنما هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ليس لغيره حق الإمامة إلا بالأسوة الحسنة . وفي هذا المعنى قول المؤلف في كشف الحقيقة :

ان المخالفين قد سمونا ... بذاك غير أننا رضينا
وأصله أن فتى أباض ... كان محاميا لنا وماض
مدافعا أعداءنا بالحجة ... وحاميا إخواننا بالشوكة
من ذاك لا تلقي له في المذهب ... مسألة ترجمها في الكتب(٢)

فيفهم من هذا الكلام أن المذهب الأ باضي ــ كمذهب فقهي ــ لا ينسب إلى عبدالله بن أباض لأن البيت الأخير يقول بأنه لن تجد في المذهب مسألة واحدة تنسب إلى عبدالله بن أباض ، فنحن نوافق على ذلك ــ فقهيا ــ وأما أصول المذهب وجذوره ، فأمور تعود إليه . و يقول سالم بن حمود الحائل في كتابه : « أصدق المناهج في تمييز الأ باضية من الخوارج » وهو ــ أى ابن أباض ــ كما ترى ــ لم يكن إماما له مذهب خاص ، ولا مسألة واحدة في الدين ... الخ . إذا ، وكيف نسبت إليه الفرقة ولم تستطع حذف اسمه طوال هذه المدة الممتدة إلى أعماق جذور التاريخ . لو

---

(١) العقود الفضية في الاصول الأ باضية ص ٩١ .
(٢) مختصر التاريخ الأ باضي .

أن اسمه كان قد اقترن بهذه الفرقة اقترانا وثيقا في وقت مبكر . قبل أن تتحرك ــ الحركة ــ إلى (مذهب فقهي) كباقي المذاهب ، ولو لم يكن إمامها الفعلي ، لما طغى اسمه عليها بهذه الصفة الملازمة . وليس من الرشيد محاولة نفي زعامة الفرقة عن ابن أباض ونسبها إلى جابر في حين يقولون فيه إن ابن أباض كان يدافع بالحجة وكأنه كان مجرد إنسان مستعار ليقوم بدور معين لساعة معينة و بعدها يختفي كالمسرحية ، وكيف يستقيم أن يكون هو مقارعا بالحجة وعالما وتابعا و ينافح الخوارج ، مع القول إنه لم يكن له مسألة واحدة في الدين . إن كل المناقشات التي كانت تجري بينه و بين الشيعة والأمويين والمعتزلة والخوارج نقاشات ذات جذور دينية ، وذلك قبل تحول الفرقة تحولا فكريا .

وهناك تساؤل لطيف أورده أبو ربيع سليمان الباروني في كتابه « مختصر تاريخ الأباضية » حيث قال : « هذا ولا نرى السبب في عدم نسبة المذهب إليه ــ يعني جابرا ــ مع أنه أفقه وأعلم أهل زمانه ، وقد قيل : إن ابن أباض يصدر في كل شئونه عن فتواه ، ولا يبت في أمر من الأمور إلا بمشورته ورضاه » (١) قلت : لعمري ان هذا التساؤل في محله ، غير أنه لو أمعن النظر وأطال التأمل لوجد أن السبب هو أنه إما أن يكون اسم جابر قد أقحم في المذهب إقحاما . و إما أنه عندما التحق بالحركة كانت قد تكونت من لدن زمن غير يسير . وكانت شخصية ابن أباض كقائد للفرقة قد رانت واستحوذت عليها ، وأن الجمهور كان يعلم أن عبدالله بن أباض هو إمامها وأما ما يقال بأن ابن أباض ما كان يصدر إلا بأمر من جابر فقول إنشائي بحت في حاجة إلى دليل . فالدليل ، دليل الضعف «٠» .

---

(١) مختصر التاريخ الأباضي .

من الواضح ان تضييق الفجوة بين خلافات المسلمين ، أو القاء ضوء كاشف على المسائل التي تباينت فيها الآراء ، لم يكن هدف كتاب المقالات ، بل ان الوازع كان مجرد شعور حزبي كما يكتب أى صحفي ، أو كاتب محترف في صحيفة تابعة لحزب مدافعا عنه ومهاجما الأحزاب الأخرى المعارضة .

وهكذا ، فيفهم روح العداء للفرق من أقوالهم واللهجة التي يستخدمونها للتعبير عن الفرق حيث وصفوها (بالفرق الضالة) . فهم ــ إذا ــ كانوا منطلقين من مبدأ مقتنع بضلال الفرق . وفي كتاباتهم وضعوا مقاييس ومعايير سموها منطقية ابتدعوها « وهي تخصهم وحدهم » ولو كان هدفهم هو دراسة هذه الفرق وآرائها واجتهاداتها ، ثم التمييز بين ما قالته هذه الفرق ، وبين ما دس فيها من أقوال من قبل خصومها ، لنحوا نحوا آخر أكثر منطقية وأكثر انصافا بالاصلاح لذات البين ولا تخذوا مراجع الفرق . وكتبها المعتمدة لديها (هي أيضا) المصادر ، اذ ليس من المنهجية العلمية في شيء ان تكتب عن فئة معينة لها رأيها المستقل وكتبها المدونة ، بدون ان تستمع الى آرائها تلك ، ومن فمها مباشرة وتقرأ كتبها التي تعكس أفكارها سالمة ومستقيمة ، والا كنت غير أمين كاذبا فيما ترويه وتكتبه .

فكتاب الفرق ــ كما أسلفنا ــ انطلقوا من مبدأ إثبات فساد معتقدات الفرق الأخرى . ومن هنا فلا ينتظر منهم ــ مسبقا ــ أن يكونوا عادلين في أحكامهم ، لان العدل والانصاف ليسا واردين في مقدمة تفكيرهم في الغالب ، ولم يجشموا أنفسهم مشقة الرجوع إلى الكتب المعتبرة لدى الفرق التي كتبوا عنها . ولم يستمعوا إليهم مفترضين صحة ما تقوله الفرق مع وضع التفريط والإفراط في عين الاعتبار ، شأن البشر كلهم ، لا بل ، فإن لسان حالهم كان يقول : بما أن هذه الفرق ضالة ، وعليه فإن كل ما تقوله (هو ضلال في ضلال) فلا داعي إلى الاطلاع على كتبهم .

والثابت أننا لو وجد فينا روح الإنصاف لقلنا إن ما يقال عن الفرق غير سليم . ذلك لأنه على الرغم من التآخي بين المذاهب الأربعة ، فالاتهامات

قاذف كلمات السوء والاقذاع والتنابز بالسباب واعتبار كل مذهب هو وحده صحيح ، وجعل أهل المذاهب الأخرى كأهل الكتاب في المعاملات واعتبار ساجدهم كنائس ، كل هذا كان موجودا فينا يوما وتجاوزناه لحسن الحظ ، فلماذا نتجاوز تلك النظرة السطحية التي كان ينظر بها بعض القدامى إلى الفرق . لمجرد وء ظن لعوامل المعاصرة ؟

والحق أن كتاب المقالات جنوا على التاريخ ، وجنوا على العلم ، وجنوا على ة محمد صلى الله عليه وسلم .

جنوا على التاريخ لأنهم زوّروه وكتبوا وقائعه على نحو سقيم ، واعتدوا على وم أبرياء ــ قلميا ــ وزيفوا مبادئهم وقالوا في ألسنتهم ما لم يقله هؤلاء .

وجنوا على العلم ، لأن كتبهم ــ مع عدم صحة ما ورد فيها وانتفاء الثقة نها ــ أصبحت مراجع يرجع إليها من يريد الاطلاع على آراء الفرق الإسلامية والتزود بمادة علمية منها ، والحال أنها خالية عن أية مادة علمية .

وجنوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم لمحاولة تفريقها . أو الإمعان في تمزيقها . وبالتالي إضعافها . ولم يحاولوا . فقط تضييق الهوة الناشئة عن نتائج اجتهادات مجتهديها لمسائل فرعية غير جوهرية في الدين وهي إلى السياسة أقرب منها الى الدين ، أو لأنها بنت سياسة .

والغريب أن بعض كتاب المقالات وضعوا أنفسهم موضع «الحكم» (١) فتراهم قد ذكروا الفرق الناجية منها ، والهالكة ، عجيب . فكيف عرفوا الناجية من الهالكة ؟ ولماذا إصدار الأحكام في صواب رأي هذا وخطأ ذاك ، وحصر الإسلام على معتنقي مذاهب معدودة معينة وتقرير الأمر جزافا و بجرة قلم ؟

---

(١) بفتح الحاء والكاف .

والمصيبة أن الكتاب المحدثين أصبحوا يعتمدون على كتب المقالات كمراجع وتجدهم يعددون أسماء فرق لم تكن موجودة يوما من الأيام أو وان كان لها وجود يوما فانها قد ماتت بل هي لم تعد (١) أن كانت فكرة أشاعها شخص أو شخصان وانضم إليها بعض قليل من مولعي التهريج وسرعان ما اضمحلت واندرست وذابت في الأثير ، ولم تكن فرقة بمعناها الجماعي ، ولم يكن لها وجود يستحق الذكر ، فالمحدثون ينقلونها لمجرد انها موجودة في كتب المقالات . فأصحاب المقالات كانوا قد وضعوها أو دونوها لمجرد إكثار عدد الفرق لتصل إلى الثالث والسبعين موافقة للحديث الذي يروونه قائلا ستفترق أمتي الى ثلاث وسبعين فرقة الخ(٢) .

والصحيح أنهم لو أمهلتهم الأيام إلى آخر الدهر لرأوا أكثر من ثلاث وسبعين فرقة . ولا أدري كيف كانوا سيؤلونه ليتفق مع الفرق العديدة . والحق أنهم تعجلوا في تطبيق الحديث ، وكأن اختلاف المسلمين انتهى في زمنهم ، وسوف لا يختلفون فيما بعد .

فزمنيا ، ليس هناك مبرر في تدريس الطلبة لفرق وهمية لم يكن لها وجود في مسرح التاريخ ، أو لو كان لها وجود فإنها قد اندرست وانتهى شأنها إلى الزوال . فليس هناك داع يدعو إلى نبشها من أحداث التاريخ السحيق ، اللهم إلا إذا كان المبرر هو مجرد استهلاك للوقت فقط .

والحق أن كل ما يقال عن الفرق ، ليس فقط أمورا لا تقرها الفرق . وتراها مقحمة فيها ، بل إنما هي أمور خلقت افتراء ، ودست فيها وهذا الشيخ علي يحى معمر يقول في كتابه « الأباضية بين الفرق الإسلامية » « عندما كنت أقرأ في كتب المقالات ما يتصل بالأباضية تصادفني عجائب في العقائد والآراء التي تنسب

---

(١) بسكون العين وضم الدال . (٢) قارن بما جاء في كتاب « الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية » .

باب : نشأة الفرق وتعدادها . ص ١٣٧ . تأليف الدكتور محمد عمارة : ط : المؤسسة العربية للطباعة والنشر .

إليهم ، اما بعبارات واضحة صريحة أو بأساليب ملتوية لكنها معبرة . وتصادفني كذلك أسماء لأشخاص كثيرين يعتبرون أئمة لهم . وأنا على يقين كامل بأن ذلك غير موجود عند الأباضية ، فإذا كانت هذه هي الحال مع فرقة ينتشر أتباعها في كثير من البلاد الإسلامية ، ولا يخلو قطر من أقطارها من كتبهم ، فكيف الحال مع من انقرض فلم يبق له أتباع ولم يترك كتبا مصنفة فيما يختص به (١) .

والمعروف المشهور ــ بعد احتكاك بعضنا ببعض في الآونة الأخيرة ــ وكما قرأنا في النص السابق . ان أهل الفرق الأخرى ينكرون بل يتعجبون من وجود أسماء اناس مجهولين مقحمة فيهم . وهنا يتمثل أمامنا شيئان :

١ ــ ان كتاب المقالات في حربهم مع الفرق كانوا يتخيلون أشخاصا وهميين عمدا و ينسبون إليهم أقوالا تقولوها فاسدة . و بالتالي يسوقون هذه الشخصيات الوهمية إلى هذه الفرقة أو تلك .

٢ ــ ان كتاب المقالات كانوا يتعمدون ، اذاً ، في جرح قوم أبرياء لحاجة في نفس يعقوب ، فتكون نزاهتهم ــ إسلاميا ــ موضع شك واتهام . لتقولهم أقاو يل كاذبة لغايات رخيصة كاذبة على أناس أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم رأوا ما رأوه حقا فاتبعوه وتمسكوا به مخلصين ، لقد خانوا ودنسوا القداسة العلمية وحرمتها بوضعهم أحداثا من عندياتهم وتزيدهم واصطناعهم مواقف وأقوالا قالوا إنها تمثل آراء الفرق ونسبوها إليهم بغية التشويش والتشويه ، ونحتوا أسماء شخصيات لا وجود لها في التاريخ الإسلامي إلا في الخيال على غرار عبدالله بن سبأ (٢) وكل ذلك رغبة في توهين حجة الخصم ولا ثبات فساد معتقده ، وكأنه انتصار عظيم ..

ولا أعتقد أن هذه الظاهرة قد غابت عن أذهان بعض كتاب المقالات أنفسهم ــ كحقيقة مرئية ــ ، وهذا أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعرى يقول بصراحة « ورأيت الناس (يقصد الكتاب) في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات و يصنفون في النحل والديانات من بين مقصر فيما يحكيه ، وغالط فيما يذكره عن

---

(١) الاباضية بين الفرق الاسلامية ص ٨ .

(٢) انظر عبدالله بن سبأ ، وقارون بـ : ..... وخمين صحابي مختلق : للمرتضي المعسكري .

قول مخالفيه ، ومن بين متعمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه (وشهد شاهد من أهلها) و بين تارك للتقصى لروايته فيما يرو يه من اختلاف المختلفين ، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفيه أن الحجة تلزمهم به » (١). فيعلق الشيخ علي يحى معمر ، على هذا الكلام فيقول « فأنت ترى أن أبا الحسن الأشعري ــ وهو من أوائل من كتب في هذا الموضوع ــ قد انتقد عدة عيوب في أولئك الذين يقصدون للحديث عن مخالفيهم كالتقصير في التحقيق واعتماد الكذب ، واضافة أقوال والغلط وعدم التقصى في البحث والزيادة الخ ..

فكل هذا ، اذاً ، بغية تمو يه الحقائق إمعانا في تنفير المسلمين عن أهل الفرق ، والصحيح أن انطباعا كهذا يؤدي إلى سلوك لا يخدم الإسلام أو المسلمين بأى نحو .

والحق ان من يريد الكتابة عن مسألة معينة فعليه بحثها في مظانها ، وهذا هو العلم الحي ، ليزود الناس علما محترما خالصا .

ولقد تبنت وكالات الأنباء في عصرنا هذا أسلوبا حكيما جدا في تصيد المعلومات الصحيحة . وذلك عن طريق بعث المراسلين إلى مواقع الأحداث . فإذا وقع سوء تفاهم بين بلدين بعثت الوكالات بمراسليها إلى كلتا الجبهتين بغية نقل خبر حي سليم دون الاعتماد على ما تبثه إذاعة واحدة من الطرفين المتشاجرين ، بل وامعانا في الحيطة أنشأت معظم الدول وكالات لها لتقصى الحقائق ، مرتابة بسلامة المعلومات التي تبثها الوكالات الأجنبية ، لاننا ــ كبشر ندرك في داخلنا أن مبدأ ــ التزو ير ــ وارد فينا في كل ما لا نحبه . واننا دوما نحاول إصباغ الأمور على ما تهواه ارادتنا وتتمناه . فمبادلة الظنون أمر مفروغ منه في علاقاتنا بحكم تكويننا فطريا .

واذا أردت المبالغة ، قلت ، على أثر انعدام الثقة فيما نكتبه نحن المسلمين وكتبناه ، شرع أبناء الإسلام يسافرون إلى الغرب ليدرسوا في جامعاته تاريخ الاسلام

---

(١) مقالات إسلامية ص : ٣٣ .

والمسلمين بل فقه الإسلام والمسلمين ظنا بأن جامعات الغرب ينابيع الحقائق ، فليت شعري ، وما السبب ؟ لأنها فقط غرب مستحوذ ، ونحن منهزمون نفسيا ــ اقتباسا من اصطلاحات الكاتب الاردني « يوسف العظم » ــ أم لأن الاوربيين أقدر على التمحيص وتقصي الحقائق والحذر في قبول الأخبار على عواهنها ؟ أعتقد بأن كلا الاحتمالين وارد ، فانهزامنا النفسي كمسلمين ــ لا جدال حوله ــ وأما « منطقية » الغربي ، فدعوى في حاجة إلى دليل ، فنحن نعلم أنهم بشر مثلنا لايمتازون عنا بيولوجيا ، و بالتالي فليس هناك امتياز سوى التباين في العواطف . فهاهما ذان التوراة والإنجيل ، مزورين ، فلم لم يعصمهما العقل الاوربي ؟ لا بل إن معظم ذوى العقول الناضجة منهم يقولون بعدم صحتهما تاريخيا وعلميا . و يتهمونهما ــ وخصوصا الإنجيل ــ بسوء الترجمة . وتصرف المترجم . ونحن نقول نعم ، ما أتيتمونا بجديد ، وعليه فلم التمسك بهما ، اذاً ؟

واما فيما يتعلق بكل شيء إسلامي . فانهم يجدون فسحة في النقد والانتقاد لانه شيء لا يخصهم ولا يتعلق بهم فهم فيه أحرار يشيدون أو يقلعون فسيان .

ولكن الشائع عنهم ــ افريقيا ــ أنهم يسيئون إلى تاريخ غيرهم ، لقد حاولوا ما وسعتهم المحاولة تزو ير التاريخ الافريقي ومسخ وجهه وصوروا بأن الافريقي إنسان بلا تاريخ « وكأنه قدم على هذه الأرض منذ أيام من إحدى الكواكب السابحة في الفلك العريض ، ولذا فان صلته بهذه الأرض حديثة وعليه فلا ماضي له فيها ولا تاريخ !!

ولا أعتقد بأن الشرقيين يتهمونني باتهام الاوربيين بما هم منه برآء .

وأما مثقفونا من الأفارقة فلقد أحسنوا ــ وما أقل ما يحسنون ــ حين رفضوا التاريخ الذي كتبه الاوربيون عنا كأفارقة وحذروا منه و وصفوه بأنه مجموعة من الترهات المنبثقة من الحقد وحذفوه من كتب التاريخ المدرسية بصفته تاريخا سقيما . وكلاما سفيها . وعدوانا سافرا .

كثر القول بأن المستشرق أفضل من الشرقي في تحليل ظواهر الامور العلمية . اذ المستشرق يقضي شطرا من عمره في البلاد التي يكتب عنها . أو ما يعرف « بالدراسة الميدانية » ، فإذا لم يتسن له ذلك ، بان كأن الحدث الذي يكتب عنه

قديما ، أطال النظر ، وأمعن في المقارنة ، ودقق في العلل والمعلومات ، متجردا عن كل عاطفة من شأنها أن تحول بين بصيرته وجوهر الأمور فتأتي كتابته ــ لهذا محترمة وموثوقا بها علميا تطمئن إليها النفوس ، في حين أننا نحن المسلمين لو أراد أحدنا أن يكتب عن منطقة من المناطق الإسلامية أو فرقة من الفرق الإسلامية تراه يعتمد على النقل والنسخ والتخمين والاستيحاء البعيد ، و يضيف من عنده ما شاء من آراء ، لذا فضل المنهج الغربي الدقيق الجريء في المسائل العلمية .

قد يكون في هذا شيء من الصحة ، غير أني أشم منه رائحة محاباة الإنسان الغربي .

والحق « ان الدراسة الميدانية » منبع ليس من اكتشافات الغرب ، ولا بوليدة القرون المتأخرة ، فإن القدامى من المسلمين كان أحدهم يقضي شطرا من عمره في البادية مع الأعراب الفصحاء ليأخذ اللغة من ينابيعها الصافية ، تطرق أذنيه كلمات اللغة ، و يسمع موسيقى الكلمة وصفير المخارج ، وهي طازجة فور خروجها من شفة الناطق بها . و يرى بعينيه حركة الشفتين من فم الأعراب ، و يشاهد كيفية إلقاء الشعر ، والقاعدة في قبولها أو رفضها لديهم ، وكل ذلك في حركة معايشة حية متفاعلة ، وليس كالكلام الميت الجميل جمال النعش المنقوش الذي تضغطه جلود المجلدات التي نفرح بحشوها في مكتباتنا اليوم .

ان المحدث بل وطالب الحديث « كان يقطع القفار والفيافي أياما ولياليَ سعيا وراء حديث يود أخذه مشافهة من الراوي ، وليست الغاية مجرد الأخذ من الراوي هي باعث الطعن إليه و إنما لمعرفة أحواله شخصيا ، فإذا وجده طالب الحديث في حال لا ترضي الله والدين ، أو لا تنصهر بالتحشم والمروءة أنكر عليه ورفض قبول الرواية منه ، لعدم اطمئنانه على أهلية الراوي .

وأما الحذر والتدقيق فأعتقد بأن أحدا لا يتجاسر على مقارنة الاوربيين بسلفنا ، فيكفي أن يلقى أحدنا نظرة على أول كتاب من كتب « علم مصطلح الحديث » تقع عليه عينه ليرى التروى والدقة والأمانة في العلم واعتقد بأن المسلمين وحدهم وضعوا علم الرجال وشروط قبول رواية الراوي أو مصطلحات تشير إلى درجات الثقة ، مثل صدوق ، عدول الخ ... أو صحيح ، حسن ، مشهور ، الخ ...

أو كذوب ، ركن الكذب الخ .. أو صدوق يهم ، أو ينسى الخ ... وليس هذا مقتصرا على العلوم الدينية فحسب ، بل تعداه إلى العلوم الدنيوية أمثال اللغة والمستشهد بكلامهم من الثقاة ــ لغويا ــ .

أما بعد ، فإنه منذ أن ماتت هذه الروح فينا وتخلينا عن منهجنا أصبحنا نعجب بغيرنا في حين أن هذا الغير ، في زعمي ، لم يتبن إلا عشر أعشار منهجنا القديم . ومنذ أن مات روح التحرى والدقة والاعتماد على الموثوق بهم . والاستعداد على اصطياد الخبر الصحيح ، على حساب الراحة البدنية ، عدنا نعتمد على التكهن ، والانطباع ، سماعا . بل على الاستنباطات والاستيحاءات . وليس الاستنباط أو الاستيحاء بمذمومين في مجال يقتضيهما . بيد أن الدارسة عن قوم معينين . أو فئة معينة لها وجودها ــ ماديا ــ يقضى استبعاد أسلوب التكهن والاستنباط والاستيحاء والحق أنها تتطلب العيش معهم . والسماع منهم . ومعاشرتهم ومشافهتهم ، فما بفم ، ليكون أنصف له ، وللقراء وللعلم .

فلنرجع ــ بعد هذه الجملة المعترضة ــ إلى موضوعنا ، فلنأخذ مثلا بالتجنى على الفرق ، والافتراء من قبل كتاب المقالات وننظر حول ما إذا كان أهل الفرق مقرين صحة ما ينسب إليهم ، و يقال عنهم أو يرفضونه ، فالنماذج نأخذها طبعا من الأباضية ، لأنها مجال دراستنا ، ولكنها تعكس ما لدى غيرها من الفرق ، معتمدين كتاب « الأباضية بين الفرق الإسلامية » لمؤلفه المرحوم علي يحى معمر كمصدر ، والسر في ذلك أنه أباضي . وأحد علمائهم فقها وتاريخا « فأباضيا » ان ردوده وتعليقاته حول الكلام الذي يقال عن المذهب الأباضي « كفرقة » تمثل آراء الأباضية خير تمثيل في الواقع .

ونرجو مسبقا ألا يتبادر إلى ذهن القارىء ، بأن التحدى والتحدى المضاد ، بين الفرق والمذاهب هو ما نحث عليه في هذه الدارسة ، بل الدافع هو إلقاء ضوء كاشف بنية صالحة ، ووازع سليم ، على أفكار الفرق ومبادئها وعقائدها . والتمييز بين ما قلته ، و بين ما قيل على لسانها لكي يقف الباحث المتأمل ، والدارس المستزيد ، على حقائق الأمور وهي سليمة لا زيف فيها ولا غش .

فمن حق الإسلام علينا دفع الشبهات وتنقية الأجواء وتصحيح الأخطاء لتزداد روابطنا متانة ، ولنبنى تلك الروابط على أسس وافية سليمة القواعد ، ولنزيل عنا غشاوة سوء التفاهم الذي ساد بين أبناء الأمة المسلمة نتيجة اختلافهم وافتراقهم إلى فرق ومذاهب متناسقة حينا ومتدابرة أخرى لنرجع كلنا إلى إمامنا الواحد الوحيد وهو القرآن الكريم . فعندما نصحح أخطاء سادت ردحا من الزمن فإننا نكون قد خدمنا أنفسنا كمسلمين ورممنا الصدع الموجود في جسم الأمة الإسلامية . ووحدنا قوتنا بتوحيد هيكلها .

وليست الإشارات إلى أخطاء وقع عليها هذا المذهب أو تلك الفرقة جرحا له أو لها ، وإنما هي مجرد محاولة للانصاف ، وتنظيف الممرات من الشوك والأذى ، فقولنا ان كتاب المقالات بالغوا كثيرا بل تزيدوا أحيانا على الفرق قول لم نقله من عندنا وإنما كشفه واقع الحقيقة المشاهدة والمعايشة اليوم .

والحق اننا نغبط الحظ السعيد الذي أتاح لنا ــ وخاصة في هذا القرن ــ فرصة الاتصال المباشر مع كافة الفرق والنحل لنسمع عنهم مباشرة و يسمعوا عنا ونعيش حياتهم وهم في بيوتهم وفي حقيقتهم حيث لا التقية ولا الدبلوماسية . ان انتشار الوعي والثقافة جعل الناس يتجردون عن روح الطعن بالآخرين لمجرد الظن والشك وسوء الفهم .

ان افتراق أمة محمد بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلى فرق ومذاهب كان رد فعل لحوادث معينة مفتعلة . و بروز كتاب الفرق منهم كان امتدادا لتلك الحروب الدموية حينا . والكلامية أخرى ، ولكنها سلاسل متصلة الحلقات تعود برمتها إلى تلك الحوادث التي حدثت . واذا ، فان افتراقنا إلى فرق ومذاهب كان سببه يرجع إلى عوامل غير طبيعية .

فالقرآن واحد لا يختلف ، والإسلام واحد وليس له ثان ، فرسول الإسلام شخص واحد ، فليس بشخصين ، فالصحابة الكرام كانوا على هديه صلى الله عليه وسلم ، وبما أن الأحداث التي أدت إلى بروز الفرق و إلى ولادة اصطلاحات أخذت أصباغا حزبية حادة و بالغة التطرف ، قد ماتت لعامل الزمن . فلا مبرر ،إذاً ، لبقاء المشاحنات التي نشأت نتيجة اختلافات سياسية فتلك السياسيات قد قبرت وقبر

معها مبادئها وأفكارها فلم يعد أمامنا ، معاوية ، ولا علي ، ولا يزيد ، ولا حسين ، ولا حجاج ، ولا جابر، ولا الخوارج ، ولا المعتزلة الخ ..

ونحن نعلم أن الكلام الذي كانت تقوله الفرق على غيرها كلام قبل ساعة غضب ومهاترات اقتضاها الموقف الذي كان مشحونا بالتوتر. والتشنج .. وعليه فإن كلاما من هذا الطراز كلام غير راق ولا يستحق الخلود . لأنه غير ثمين .

بل انى لا أرى مبررا لاحتفاظنا ــ نحن الأ بناء ــ بألفاظ المهاترات التي استخدمها الآباء في ساعة العسرة . ألا ترى لو أن جدك وجد (زيد) تخاصما يوما وتعاركا وقال كل واحد منهما على الآخر قولا قبيحا ، وتبادلا رسائل السباب والمقاذعة ، ثم ماتا وأنتم ــ كأحفاد ــ ترعرعتم ، ثم عثر ــ كل على حدة ــ على تلك الرسائل التي كان يتبادلها جداكم ، فماذا ــ ترى ــ تفعلون بها ، أتحتفظون بها لتكون دوما مصدر شر وقلاقل وقنابل مؤقتة ــ كما يقولون ــ أم أنكم ستبادرون إلى طمرها تحت الرمال أو تصيرها وقودا للنار ، كمحاولة لنسيان الماضي المتعكر ، بغية انشاء مستقبل جميل من العلاقات ؟ وأعتقد أن الحل أو السلوك الثاني أحكم وأحمد .

فكتب المقالات كردود فعل لأفعال ، تمثل هذا النمط من المثل الذي قلناه .

فنحن اليوم ــ كأبناء ــ في أحوج ما نكون الى التعاضد لا إلى تحفيظ الأ بناء أساليب المناظرة وفنونها التي كانت تجري بين الشيعة والسنة ، و بين الخوارج والعلويين ، أو بين الأ باضية ومتهميهم بالخارجية الخ .. لنستمر نحن من جديد على نفس الدرب ، ليس فقط لأنها أمور مهترة ومفسدة للعقل بل انه بالاضافة إلى رجعيته وعدم علميته مضر بنا ومهدم لبنيتنا كمسلمين .

لقد شاهدنا هناك رجالا في ايران ، أمثال آية الله القمي ، ــ يدعون المسلمون إلى الإسلام و يدعون إلى التفاهم ــ وهم في عرفنا فرقة ــ ورأينا هناك رجالا من الأ باضيين في عمان أمثال أحمد بن حمد الخليلي وغيره من علماء الأ باضية أمثال علي يحى معمر، يمدون أيديهم إلينا وهم في عرفنا فرقة . والحق أنهم يمدون أيديهم إلى باقي المسلمين للتفاهم ونبذ الخلافات ونسيان ما أفسده سوء التفاهم . ومن حقهم علينا أن نفهمهم وأن نجيب دعوتهم ، ولا يجوز أن نتركهم يسبقوننا إلى هذا الخير العظيم خير محاولة جمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وبما اننا نحن السنيين ــ نحن الأغلبية ونحن ــ إلى حد ما ــ الرافضون لقبولهم ــ فعلينا مراجعة أنفسنا في مواقفنا تجاههم ومراجعة ما كتب عنهم أيام أن كانوا خصوما ــ لا أرجع الله أيام الخصومات ــ فلهذا نحن نراجع ما كتب عنهم وننظر ماذا يقولون علّ قارئا يقرأ هذا الكلام ، فيسر ، اذ وجد أن الأ باضية ليست بعيدة عن المذاهب الأخرى البعد الذى صوره فأحسن صورته أو تصويره كتاب المقالات في ساعات الغضب والانفعال أو على الأقل يجد فرصة الاستماع إليهم وهم يقدمون أنفسهم و يدافعون عن مبادئهم كما هي وليست كما يرويها غيرهم .

الأ باضية تتحدى :

يظهر أن الأ باضيين يتتبعون أخبار الكتب التي تصدر عن الفرق ، واذا وجدوا شيئا يخصهم ، انتقدوه ، و بينوا الأخطاء الواردة فيه . وهذا الشيخ علي يحى معمر يدرس كتب المقالات واحدا واحدا و يرد عليها ونحن نقتبس من ردوده ــ كما أشرنا سابقا ــ .

قال تحت عنوان : الأ باضية عند الأشعري :

« قد يعجب القارىء الكريم إذا قلت له : إن أبا الحسن الأشعري رغم أنه كتب عن الأ باضية كثيرا ، فإنه لا يعرف عن الأ باضية شيئا ، وان أكثر ما كتبه عنهم لا علاقة لهم به ، ولا علاقة له بهم . وليتضح للقارىء الكريم هذا القول فاني أرجو منه أن يرافقني قليلا » .

و بعد أن أطال الحديث عن الأشعري وتشنيعاته والتناقضات بين ما أورده وذكره و بين واقع الأ باضية ، أضاف قائلا وناقلا عن كلام الأشعري ونحن هنا نكتب ما نقله عن الأشعري ونضعه بين قوسين ، وننقل تعليقاته عليه كما هي :

« والفرقة الثالثة من الأ باضية أصحاب حارث الأ باضي قالوا في القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا فيه سائر الأ باضية » .

و بعد أن يذكر لهم جملة التشنيعات يقول :

« والفرقة الرابعة منهم يقولون بطاعة لايراد الله بها ، على مذهب أبي الهذيل . ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله إذا فعل شيئا أمره الله به وان لم يقصد بذلك الفعل ، ولا أراده به » .

و يعلق الشيخ الأ باضي على هذا الكلام فيقول :

« هكذا بدأ أبو الحسن حديثه عن الأ باضية ، فبمجرد ما ذكرهم ، بدأ في تقسيمهم إلى فرق ، وجعل ينسب إلى كل فرقة جملة من الآراء والأقوال . والقارىء الكريم عندما يبدأ في قراءة ما كتبه الأشعري عن الأ باضية ، يفهم أن الأ باضية ينقسمون إلى أربع فرق كبرى هي هذه الفرق التي ذكرها ، وان بعض هذه الفرق قد انقسم أيضا إلى فرق أخرى فرعية . وذكر الأشعرى أقوالا أخرى وشنائع أخرى ، نسب بعضها إلى جميع الأ باضية ، ونسب بعضها إلى إحدى تلك الفرق ، وعند الرجوع إلى كتب الأ باضية التي ألفت في عصر أبي الحسن والتي ألفت بعده ، فان القارىء لن يجد فيها شيئا عن هذه الفرق ، ولا عن أسمائها ولا عن آرائها ولا عن أئمتها . وخذ ما شئت من كتب السير والتراجم عند الأ باضية ، التي تتقصى أخبار أئمتها وعلمائها ومشايخها ، فانك لن تجد ولا إشارة واحدة عابرة إلى أولئك الأئمة الذين ذكرهم الأشعري واعتبرهم أئمة لفرق كاملة من الأ باضية . واقرأ ما شئت في كتب العقائد عند الأ باضية فإنك لن تجد ذكرا لهذه الفرق ولا لآرائها ، وكل ما نستطيع أن نعتذر به عن ايراد أبي الحسن لهذه التفاصيل أنه وقع فريسة لبعض المشتغين ، فكان يتلقى مقالات الفرق عن اناس يثق بهم ، ولكنهم ليسوا في المحل الذي يراه لهم ، و يضعهم فيه من الثقة والصدق سواء نقله عنهم عن طريق الرواية والسماع أو عن طريق القراءة والاطلاع في كتب مدونة ، فهو لم يشر إلى ذلك على كل حال . و يكفي فيما أعتقد لنفي أن يكون ما قاله أبو الحسن عن الأ باضية صحيحا ، جهله بهم ، وعدم ذكرهم لأى شيء منه في مراجعهم العامة والخاصة المكتوبة والمتحدثة .

و يستمر قائلا :

« والفرق الثانية يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد بن أنيسة » وذكر فيما ذكر من آراء هذه الفرقة ما يلي : « وزعم ــ أى يزيد بن أنيسة ــ أن الله سبحانه وتعالى سيبعث رسولا من العجم ، و ينزل عليه كتابا من السماء ، يكتب في السماء ، و ينزل عليه جملة واحدة ، فترك شريعة محمد ، ودان بشريعة غيرها » . وزعم أن ملة ذلك النبي الصائبة ، وليست هذه الصائبة التي عليها الناس اليوم الخ ..

و يعلق الشيخ الأ باضي على هذا الكلام فيقول :

« والغريب في الأمر أن القارىء الكريم إذا رجع إلى المصادر الأ باضية من كتب وأسماء علمائها منذ أوائل القرن الثاني الهجري إلى هذا العصر ، فإنه لن يجد عند الأ باضية هذا الإمام الذي سماه أبو الحسن الأشعري ــ يزيد بن أنيسة ــ ولا يجد عندهم ذكرا لفرقته ولا لآرائه ، بل انهم يحكمون على من يدين بمثل تلك المقالات بأنه مشرك وخارج عن الملة ، ومن كان مشركا وخارجا عن الملة الإسلامية لا يمكن أن يحسب في فرق المسلمين ، ولست أدرى كيف ساغ لأ بي الحسن أن يزيد ــ هذا اليزيد ــ إلى الأ باضية وأن يحشر معهم فرقته ــ هذا ان وجد حقا ، ووجدت له فرقة ــ وكيف ساغ له أن يحسبها في فرقة الإسلام ، و ينسبها إلى إحدى طوائفه ، وهو نفسه يحكم عليها بالخروج عن الإسلام الخ » .

و يضيف الأشعري قائلا في تعداد الفرق الأ باضية « والفرقة الثالثة من الأ باضية ، أصحاب الحارث الأ باضي ، قالوا في القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا سائر الأ باضية ، وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل » و يعلق الشيخ الأ باضي على هذا الكلام نافيا صحته ومفندا « وهذا الحارث أيضا لم يحرث عند الأ باضية ، ولم يزرع لا آراء ولا حبوبا ، ولم يحصد الأ باضية عنه أو عن فرقته شيئا ، ان كان حقا حرث في أى مكان الخ » .

قال الشيخ الأ باضي علي يحى معمر ، « يقول أبو الحسن الأشعري في مقالاته « الأ باضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأى شيء قدروا عليه بالسيف أو بغيره » وقال علي يحى معمر « وترددت هذه الكلمة على أقلام أكثر من كاتب عن الأ باضية معتمدا على غير مصادرهم » . و يستطرد قائلا في نفس السياق ، ناقلا عن فتوى أطفيش « قال قطب الأئمة الإمام محمد يوسف أطفيش « وهو أحد أقطاب الأ باضية » في غير موضع من كتبه ما يلي : « ونحن لا نقول بالخروج على سلاطين الجور الموحدين ومن نسب إلينا وجوب الخروج ، فقد جهل مذهبنا » . فقارن بين ما ادعاه الأشعري ونسبه إلى الأ باضية و بين مايقوله الأ باضية حقيقة» .

مسألة أخرى : مع ابن حزم :

قال علي يحى معمر : « يقول ابن حزم « و يوجبون ـــ أي الأ باضية ـــ القضاء على من نام نهارا فاحتلم » و يعقب الشيخ الأ باضي فيقول موضحا المسألة « وليس الأمر هكذا بهذا الإجمال كما زعم ابن حزم ، و إنما يوجبون القضاء علي من أصبح جنبا مع شيء من التفريط عملا بالحديث الشريف الذي رواه الربيع بن حبيب والبخاري ومسلم ومالك في الموطأ (١) » .

مسألة أخرى :

قال علي يحى معمر : « يقول ابن حزم « و يتيممون وهم على الآبار التي يشربون منها » « واعترض العالم الأ باضي مفندا ، فقال : « ويخجلني أن أقول للعلامة ابن حزم أن هذه الدعوى باطلة لا أساس لها من الصحة » ، و بعد أن يستمر في توضيح الأمور بلهجة لا تخلو من الخشونة ، أضاف « والذي يحملنا على أن نقف هذا الموقف الذي لا يخلو من العنف ، هو أن أكاذيب كثيرة جرت على أقلام شهيرة ضد الأ باضية ، منها ما يناقض بعضها بعضا ، ومنها ما يكذبه الواقع وتبطله الحقائق المعروفة الثابتة ، مما يدل على أن تلك الأكاذيب صدرت عن مخيلات تتصور ، لا عن مشاهدات تبصر ، أو حقائق تقع . فكتب الأ باضية ، ـــ وفي الطهارة خاصة ـــ موجودة ومنتشرة في عصر ابن حزم ، وقبل أن يوجد ، وليس فيها ما يشم منه رائحة التهاون ، وأى نوع من التساهل في قضية الطهارة الخ » .

ومازلنا نسوق الأمثلة في دحض الأقوال الشنيعة والمتقولة على الأ باضية و « الفرق » والظاهر أن كتاب المقالات ما كانوا أمناء في الذي كانوا يقولونه « بحق الفرق » وانهم لم يطلعوا قط على فقه « الفرق » الذي كتبوا عنه اطلاعا كافيا يسمح لهم بالخوض فيه ، وتبيين هفواته ، إن كان فيه هفوات .

مسألة أخرى :

قال علي يحى معمر : « ذكر الاستاذ عبدالقادر شيبة الحمد ، أن من مذهب الأ باضية « ان من زنى أو سرق ، أقيم عليه الحد ، ثم استتيب ، فإن تاب وإلا قتل » .

---

(١) انظر بقية المسألة والحديث في صفحة : ٣٢٨ في « الاباضة بين الفرق الاسلامية » .

وعقب علي يحي مفندا فقال : « هذه فرية عن الأ باضية أطلقتها شفة آثمة مغرضة ـــ ولسنا نتهم بها الاستاذ عبدالقادر شيبة الحمد ، فإنها موجودة في مصادر قديمة وبما أخذ منها ـــ وكل مسؤولية الاستاذ عبدالقادر في هذا الموضوع وأشباهه ، إنما هو التقصير وعدم التثبت ، وعدم النزاهة عند الحديث عن الفرق ، وكان عليه أن يتثبت و يتحقق قبل أن يرمي الكلام على عواهنه . ولا أساس لهذا الرأى عند الأ باضية ، فحد الزنى وحد السرقة ثبت بالنص ، وكذلك بقية الحدود ، وما ثبت بالنص عند الأ باضية ، فلا مجال فيه للرأى ، ولا يتجاوزون فيه حكم النص (١) الخ .

مسألة أخرى : « قضيب التيس » (٢) :

قال علي يحي معمر : « قال ابن حزم « ويحرمون أكل قضيب التيس والكبش » . و يعقب قائلا « لست أدري لماذا هذا الاهتمام الكبير بهذه الألياف التي لايعمد إلى أكلها أحد ، ولا يستسيغها أحد ، سواء كانت حلالا أم حراما . وقد صدق ابن حزم في هذه القضية فان الأ باضية يبعدونها لسببين : السبب الأ ول انها أشياء قذرة تتقزز منها النفوس ، و ينفر منها الطبع السليم وليس فيها ما يغرى على الأكل أو يفيد الجسم . الثاني ، أنها حامل بول ، ولا تخلو منه ، والبول ـــ عند كثير من المذاهب ، منها الأ باضية ـــ نجس ، لأنه قذر خبيث ، وقد حرم الله تبارك وتعالى الخبائث . فامتناع الأ باضية عن أكل تلك القضبان وتقديمها على موائدهم وفي ولائمهم ، يرجع إلى أنها حوامل للخبيث ، وانها مستقذرة على كل حال . أما موضوع الحكم بنجاسة بول ما يؤكل لحمه ، فهو أيضا فقهي فرعي اختلفت فيه أنظار المجتهدين ، وتعددت أقوالهم ، وطال فيه النقاش والبحث ، واستقرت الأ باضية على القول بالتحريم والنجاسة وهم لايقطعون فيه عذر من خالفهم لأنها مسألة فرعية » .

---

(١) نفس المصدر : ص : ٣٣٢ ، راجع الكتاب المذكور إذا رغبت في الوقوف على الرد كله ، والحق انه كتاب يستحق قراءة متأنية . (٢) نفس المصدر ص : ٣٢٧ .

وبعد دفاع مرير عن المذهب الأباضي من الشيخ علي يحي معمر، وبعد إيراده عشرات العشرات من الأمثلة، التي اتضح فيها أن كتاب المقالات، ثم المحدثين الذين تبنوا الأسلوب نفسه، قليلو الحظ في الاطلاع على حقيقة الفرق، يقول علي يحي معمر « وهذا الجهل بالمذاهب الإسلامية ومقالاتها الحقيقية، والخلط بين ما يذهب إليه كل واحد منها ونسبته إلى الآخر، والتشويه الذي ينتج عن ذلك ـــ سواء كان مقصودا أو غير مقصود ـــ هو ما يجب ان يبرأ عنه حملة الشريعة الإسلامية والاساتذة الذين يناط بهم تدريس مواد الإسلام وتكوين أجيال تحمل مشاعل النور والهداية (١) الخ .

والحق أنه لا مندوحة لمن يريد معرفة حقيقة أية فرقة من الفرق عن قراءة فقهها قراءة دقيقة وشاملة .

والمعلوم أن المسلمين كلهم مهما اختلفوا في اجتهاداتهم في الفروع، فإن القرآن والسنة يجمعانهم أجمعين . والحق أن الإنسان الحصيف يستطيع فهم أئمة أى مذهب، ولون تفكيرهم ونزعتهم، من خلال معالجتهم للمسائل الفقهية الاجتهادية لأنها عصارة العقل، وعليه فالدارس عن الفرق ـــ بعد دراسته دراسة صادقة ومتجردة لتاريخ نشأة الفرقة التي ينوى الكتابة عنها ـــ أن الخطوة الأولى والأساسية له، هي الفقه، لانه، كما أسلفنا، بين مدى قرب المذهب أو بعده لمصدرى التشريع الإسلامي « الكتاب والسنة » غير أن الظاهر أن معظم ـــ إن لم يكن كل ـــ كتاب المقالات لم يجشموا أنفسهم عناء دراسة فقه المذاهب الصغيرة لسوء ظنهم به مسبقا وازدراء اجتهادات علماء الفرق .

بيد أن الأمانة العلمية ـــ وقتئذ ـــ كانت تتطلب منهم عدم الخوض في المسائل الدينية التي للفرق فيها كلام وآراء ومواقف كالفقه، والكلام، وغيرهما وأن يكتفوا فقط بالاشارة إلى مواقف «الفرق» تجاه الحكام لأن ذلك ـــ إلى حد بعيد ـــ شئون سياسية . وان لبس ثوبا دينيا مزركشا . والسياسة مجال واسع يقبل الأخذ والرد والتحليل والتعليل بدون ذنب . ولو فعلوا هذا لكانوا قد طبقوا الآية الشريفة

---

(١) نفس المصدر، ص : ١٠٥ .

« ولا تقف ما ليس لك به علم » اذ أن من يخض فيما ليس له به علم ، يوشك أن يقع في المحذور . وهو « الكذب » ولقد رأينا ان الأباضية اتهمت كتاب الفرق ومن تبعهم من بعدهم بعزو أقوال غير صحيحة « فقهيا » إلى المذهب الأباضي ، إما جهلا ، وإما عمدا ، فكلاهما لا يغتفر في مثل هذه المواقف ، لانه تزوير للحقائق ، وتزييف للأمور ، وتحريف لكلام الغير ومبدئه . كما اتهموهم أيضا في التلاعب بتاريخ الأباضية « وربما الفرق كلها » لاقحام رجال مجهولين في تاريخ الأباضية ومذهبها ، ونسبتهم إلى ذلك المذهب ، واختراع أحداث لم تقع وما شاكل هذه الأمور .

هل الأباضية خوارج

كل المصادر للتاريخ الإسلامي أجمعت بأن عبدالله بن أباض ، زعيم المذهب الأباضي ، كان من الخوارج وانشق عنهم . ولذا فإن المؤرخين — غير الأباضيين — يربطون أتباعه « الأباضيين » بالخوارج و يعتبرونهم مجرد فرقة من الخوارج .

قالت دائرة المعارف الإسلامية عن الأباضية :

« يطلق هذا الاسم (الأباضية) في شمال إفريقية على فرقة من الخوارج الذين انفصلوا عن علي عندما قبل التحكيم مع معاوية » .

وفي فلسفة الأباضية حول الخلافة والخليفة تقول دائرة المعارف الإسلامية :

« رأى الأباضية في الإمامة ، ليس من الضروري أن يكون الإمام قرشيا بل يكفي أن يكون فاضلا ورعا ، وأن يحكم طبقا لأوامر القرآن والسنة ، فإذا ابتعد عنهما ، وجب خلعه » (١) .

وقال أحمد أمين في « ضحى الإسلام » عن الأباضية في معرض حديثه عن الخوارج من أجل هذا لم يرد لنا عن الخوارج مذهب مفلسف . ولا فقه واسع منظم ولا نحو ذلك ، إلا ما كان من الأباضية ، أتباع عبدالله بن أباض الخارجي ، الذي مات في عهد عبدالملك بن مروان ، فإن هذه الفرقة عاشت وانتشرت في شمالي إفريقية ، وفي عمان ، وفي حضرموت ، وزنجبار .

واستمرت إلى يومنا هذا . فكان من الطبيعي أن يكون لهم أصول اعتقادية وتعاليم فقهية الخ .. « إلى أن يقول « فما استقر السفاح في خلافته حتى تحرك خوارج عمان ، وعلى رأسهم الجلندي ، وكان هو وأصحابه من الخوارج الأباضية ، فأرسل إليهم السفاح جيشا على رأسه أحد القواد العظام ، خازم بن خزيمة . فسار في البحر حتى أرسى على ساحل عمان الخ .. « و يقول أيضا « وثار الخوارج أيضا في الغرب (تونس وما حولها) من صفرية وأباضية ، فأرسل إليهم المنصور عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة اخي المهلب ، فدامت المعارك بينهم طويلا ،

---

(١) ج ١ ، ص : ١١٤ .

وانضم كثير من البربر إلى الخوارج وكان على رأس الخوارج أبو حاتم الأ باضي الخ » (١) .

والأستاذة الدكتورة/سيدة اسماعيل كاشف ، قد لاحظت وذكرت تلازم اسمى الخوارج والأ باضية في كتب التاريخ وأقلام الكتاب فقالت : « لكننا نلاحظ أن جل المؤرخين وكتاب الفرق والعقائد والنحل القدماء والحديثين ، فضلا عن سائر الكتاب ، يعتبرون الأ باضية إحدى فرق الخوارج ، وهذا واضح مثلا في كتابات الأشعري والمالطي الشافعي ، وعبدالقاهر البغدادي ، والخطيب الرازي ، وابن حزم الأندلسي ، والشهرستاني ، والشاطبي الغرناطي ، فضلا عن سائر الكتاب المعاصرين ، المستشرقين منهم ، وغير المستشرقين » . وتضيف قائلة : « وأدخلهم البعض عن جهل أو تعصب ضمن فرق الغلاة الذين غلوا بدينهم وخرجوا عن أصول الإسلام » .

سوى أنها سرعان ما تضع ملاحظة أخرى مهمة لها قيمتها . فتقول وفي اعتقادنا أن إطلاق صفة الخوارج على الأ باضية يرجع إلى الجهل بالمصادر الأ باضية والفقه الأ باضي .(٢) الخ .

وقال عنهم الأستاذ الكبير محمد أحمد أبوزهرة « الأ باضية هم أتباع عبدالله ابن أباض ، وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ، ولذلك بقوا ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ، و يقيم طوائف منهم في بعض واحات الصحراء الغربية ، والبعض الآخر في بلاد الزنجبار ، ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية في المواريث بعض آرائهم الخ .. (٣)

غير أن الأ باضيين لم يدعوا فرصة سانحة بدون ان ينتهزوها معلنين براءتهم من الخوارج ورفضهم لمبادىء الخوارج وأفكارها ومعتقداتها المغالية المتطرفة عقائديا .

---

(١) ضحى الإسلام ، ج ٣ ص : ٣٣٦ ــ ٣٣٧ ــ ٣٣٨ ط دار الكتاب العربي . بيروت .

(٢) عمان في فجر الإسلام ، ص : ١٢ ــ ٤٣ ــ ٤٤ . (٣) المذاهب الإسلامية ، ص : ١٢٧ .

فما من عالم أباضي كتب إلا وأبدى تبرأ المذهب الأباضي من الخوارج وأبعده منذ تاريخ نشأة المذهب إلى اليوم ، والحق أن الأباضية قدمت نفسها إلى المسلمين بصفتها أحد المذاهب الإسلامية لا كإحدى الفرق المتطرفة المغالية .

غير أنه من الواضح أن المسلمين السنّيين ــ وهم الغالبية العظمى في الجماعة الإسلامية ــ ظلت نافرة أو متحفّظة عن اعتراف الفرق كإخوان على قدم المساواة ، كما تعترف المذاهب الأربعة السنية ببعضها بعضا ، معتبرة خلافاتها ، بأنها خلافات في الفروع ، لا تمس جوهر العقيدة ، وأن عقيدتها واحدة في الأمور الأساسية الرئيسية (روح العقيدة) .

والسؤال هنا ، هو : لماذا يرفض باقي المسلمين الإصغاء إلى حجة الفرق أمثال : الأباضية ، الجعفرية ، الزيدية الخ .. بروح رياضي ؟ ولماذا لا يفتحون لها مجالا في عرض آرائها على الجمهور السنّي بدون أن يضع علماء السنّة عراقيل تحول دون فهم العوام ، وأنصاف المتعلمين حقيقة الفرق الأخرى ؟ ولم يصطنعون التشويش في الجوّ الذي يسود العلاقة السنّية الفرقيّة ؟ وما هي المصلحة في إبقاء تلك العلاقة متوتّرة دوما ، وكأن العلاقة من طبيعتها أن تتوتّر ؟ بيد أني أعتقد ــ مع وضع الفرق الأخرى غير الأباضية جانبا ، لأن الأباضية هي موضوع دراستنا ــ أن كل المسلمين الذين أتاح لهم الحظّ الاتصال بالأباضية يجدون أن مايقال عنهم غير صحيح ، بل إنهم مسلمون كباقي المسلمين ، قد يخطئون في اجتهاداتهم حينا ، و يصيبون في أكثرها كغيرهم تماما ، لأن المصدر واحد ، وهو كتاب الله وسنّة رسوله بلا أدنى تمييز بين هذا المذهب أو ذاك ، غير أن المسلمين السنّيين في الحقيقة مازالوا يتقلبون في خطأين . وأما الأول : فخطأ تاريخي ، والثاني : خطأ منهجي .

والخطأ الراجع إلى التاريخ ، هو في رأينا ، الاستمرار في خلط الأمور التي تداخلت يوما ثم انفصم بعضها من بعض فيما بعد عمليا ، إلا أن المؤرخين بقوا يضعونها في خانة واحدة . أقصد من هذا عدم التمييز بين الأباضية والخوارج ، رغم انفصال زعيم الأباضية عن الخوارج ، ومحاربته إيّاهم ، ورغم شهادة التاريخ بأن أحد أكبر قادة الجيوش الإسلامية التي حاربت الخوارج حربا متواصلة ضارية ، كان أباضيّا عُمانيا وهو مهلب بن أبي صفرة . ورغم اعتراف باقي المسلمين بأن

الأباضية شديدو الغيرة على الإسلام والتمسك به ، والتفاني بالإخلاص له ، وعدم الاتصاف بالتعصب المذهبي ، ومع كلّ هذا فالمسلمون الآخرون ظلوا ينظرون إلى الأباضية — من خلال صورتهم المرسومة في كتب التاريخ — على أنهم مجرد فرقة من الخوارج . وهو ماجعل الناس تنظر إليهم نظرتها إلى الخوارج في إطار ماقيل عنهم تاريخيّا ، سواء أكانوا مظلومين في الأحكام التي أنزلت عليهم أم كانوا حقّا كما وصفتهم كتب التاريخ التي نقرأها ونستقي منها معلوماتنا عنهم .

والحق أن الخوارج كانوا مرفوضين من الجماعة الإسلامية ليس فقط لأنهم كانوا من بين أتباع الإمام عليّ ، ثم تمردوا عليه ، وانفصلوا عنه وحاربهم ، وحاربوه ، رغم اتفاق كافة المسلمين بأن إمامته كانت سائغة شرعيا . فلو كان الأمر متوقفا على مخالفة الإمام ، لهان ، لأن وجهة نظر الخوارج في تخطئتهم الإمام في قبوله التحكيم ، وجهة نظر لها حججها ، إلا أن من دقق النظر في الملابسات التي أدت إلى قبول الإمام للتحكيم يدرك بأن الإمام كان في وضع وظروف من الدّقة والحساسية والخطورة بحيث لم تدع له حرية للتصرف أو مجالا للمناورة سياسيا ليخرج من تلك الدّوامة بربح أكبر وخسارة أقل .

ولكن أمر الخوارج هؤلاء ، تمادى واستفحل حتى كان اغتيال الإمام في يد أحدهم لافي يد خصمه المتمرد العائق لرأي الجماعة «معاوية بن هند» فعندما تم اغتيال الإمام على يد الخوارج أصبحوا يحملون وصمة يلازمهم عارها أبد الدهر ، ومع فداحة الخطب فإننا لا نجدهم قد ندموا ، أو يحمّلون الفاعل وحده ، «وزر إزهاق تلك النفس الزكيّة» حيث لا تزر وازرة وزر أخرى ، بل إننا نراهم حبارى مسرورين بفعلة زميلهم هذه الشنعاء ، «عبدالرحمن بن ملجم» هذا الذي يتشاءم البشر من ذكر اسمه ، و يقول قائلهم مشيدا بحادثة الاغتيال :

ياضربة من (تقيّ) ما أراد بها	إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
اني لأذكره يوما فأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا

ناهيك عن استمرارهم في تكفير باقي المسلمين واستحلالهم دماءهم وأموالهم مما جعلهم مسهوكين إسلاميّا ، إذاً ، فكل مايرتبط بهم يلحقه ما يلحقهم . وبما أن كتب التاريخ ــ وإن بطريقة النسب ــ تربط الأباضية بهم بصلة أو بأخرى ، لذا ظلّ الناس ينظرون إلى الأباضية بشيء من «الخوارجية» فكل من تحدّث عن الخوارج ، تسمعه يقول «لقد انقرضوا ، فلم تبق لهم باقية إلا قليلا في جبال عمان» يقوله بشيء من الاستخفاف .

وأما الخطأ المنهجي الذي وقع عليه المسلمون السنّيون ، فهو إصرارهم على اعتبار الكتب التي كتبوها عن «الفرق» هي المصادر والمراجع الصحيحة لكل شيء متعلق بالفرق وشؤونها ، وتاريخها ، ووجودها ، وعقائدها ، ومبادئها .

وهنا ، في معرض استمرار الأباضية نفي الزعم القائل إنهم «خوارج» والإصرار على ذلك ، يقول أحمد بن سعود السيّابي في مقدمة له لكتيب صغير الحجم(١) لمؤلفه «أبو إسحاق إبراهيم أطفيش» واسمه «الفرق بين الأباضية والخوارج» يقول «على أنه ليست ثمة علاقة تربط الأباضية بالخوارج الأزارقة والصفرية والنجدية وغيرها من فرق الخوارج ، وانما هي دعاية استغلتها الدولة الأموية لتنفير النّاس من الذين ينادون بعدم شرعية الحكم الأموي كما أن جعل المحكمة «أهل النهروان» الذين هم سلف الأباضية ، وليسوا سلفا للأزارقة والصفرية والنجدية من الخوارج ، هو من وضع الواضعين ، ومن صنع أرباب الأقلام المغرضة . مع أن الخوارج يسيرون في خط معاكس مع الأباضية . يتضح ذلك من خلال المبادىء والأسس التي يقوم عليها مذهب كل من الفريقين ، وللأباضية العديد من المواقف ضد الخوارج .

إذاً ، فالأباضية يرفضون أن يكونوا من الخوارج فيرون أن تصنيفهم من جملة الخوارج هو من صناعة الدولة الأموية .

إلا أنني مع تفهمي لموقفهم أرى أنه ليس من المستقيم جمع قولين متناقضين ، فكون الأباضية يعترفون أن المحكمة هم سلف الأباضية معناه . أنهم تاريخيّا

---

(١) ولكنه جدير بالقراءة لمن يريد الوقوف على الفرق بين الأباضية والخوارج .

يربطون أنفسهم بأس أساس الخوارج ، فأهل «النهروان» كما هو معلوم ، بذور الخوارج ونواتها . وأنا لا أعلم كيف يتبرؤون من الخوارج في حين أنهم ينسبون أنفسهم إلى أصل أصول الخوارج . وإذا كانت الأزارقة والصفرية والنجدية «كفروع» لا تنتمي إلى المحكمة كأصول ، فإلى أين ينتسبون ؟ فهل كان هناك خوارج قبل خروج المحكمة من صف الإمام عليّ ؟ والحق أنه لمن الصعب على الأباضية أن ينفوا أنهم ليسوا بخوارج في حين أنهم يثبتون أن المحكمة هم أصل الأباضية ، فالمرء يكاد يفهم من قولهم ذاك ، أنهم أكثر خارجية من الأزارقة . والنجدية . والصفرية أنفسهم ، اللّهم إلا إذا كان شافعهم هو أن قصدهم هو أن المحكمة ما كانوا خوارج بالمفهوم المتطرف الذي عرف به الخوارج الغلاة فيما بعد ، وهو قصد مقبول إن كان هو المقصود (١) . (٥)

غير أني ارجع وأقول من جديد بما أن الأباضية ينفون عنهم التعصب والغلو فإنه ليس هناك داع يدعو إلى الإصرار أنهم خوارج وأنهم يقولون كذا ، وكذا ، لقد قابلت شيعيا وتحدثنا منفردين عن الأباضية ، فوصفهم بأنهم شديدو التمسك بالكتاب والسنّة ، وأنهم ليسوا بمتعصبين . وقابلت بعد ذلك شافعيا فحدثني نفس الكلام . مما يثبت عندي — مع تجاربي الشخصية — أنهم بعيدون عن التعصب والغلو ، وهي شهادة أدليها لوجه الله ، والحق أني لا أجد وجها يبرر إقناع إنسان في اعتناق أو اعتقاد مالا يعتنقه ولا يعتقد به . فأنا أتصور بأن مبتغانا كأمة محمد (ص) هو إحسان الظن في بعضنا بعضا ماوسعنا السعي إلى ذلك بغية توحيد صفوفنا وغض الطرف عن زلات أولئك الذين نعتبرهم محدثين في أمرنا شيئا ، طالما قد غيروا من مواقفهم أو أبدوا استعدادا لتغييرها ، ومعايير الحق تكمن في الاعتقادات والسلوك والعمل ، وليس في تقييم الأطراف المتنازعة بعضها بعضا .

---

(١) الفرق بين الأباضية والخوارج ، ص : ٤ ، مطبعة الاستقامة . روي . مسقط .

غير أن بعض الوعاظ والكتاب يظنّون أنهم كلما وفقوا في بيان فساد عقيدة المذاهب الأخرى ، نالوا عند الله حظوة ، مما ولد كثيرا من تبادل التهم والتهم المضادة ، كأنما المسألة غدت وأصبحت مسألة «تنافس وغيرة» واحتكار منازل ، وجمع الفضائل في اليد والاستئثار بها «ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا ، ان الله كان بما تعملون خبيرا» . صدق الله العظيم . النساء آية : ٤٩ .

فتعليمات القرآن إلينا واضحة ، إذاً ، وهي : ألا نقول لمسلم إنك لست مسلما ، وإنك تعتقد كذا ، في حين أنه ينفي عن نفسه الاعتقاد بما نريده ان يعتقد فقط لنجد فرصة التعليق عليه والنيل منه .

و يستمر الشيخ القطب أبو اسحاق إبراهيم أطفيش في تنديده لأ ولئك الذين ظلوا يسيئون إلى الأ باضية لإرجاع نسبهم إلى الخوارج ، فيقول «وما خلطوا بين الأ باضية والخوارج إلا لطمس معالم الحق والصواب حسدا من عند أنفسهم ، وأني لمن اتخذ التشغيب مطية ، أن يعترف بالحق والصواب وقد عميت بصيرته»(١) .

ولا شك أننا نلمس أسلوبا متصفا بالرفض العنيف من الأ باضية لتهمة نسبهم إلى الخوارج . و يقول عالمهم ، أطفيش ، الذي تحدثنا عنه ، في نفس السياق «فشلوا في قول الصواب ، فخلطوا بين الأ باضية والخوارج . فتارة ينسبون الأ باضية إلى الخوارج وتارة ينسبون الخوارج إلى الأ باضية ، كما يفعل الكثير من المدوّنين في الأصول والفروع في إضافة أقوال المعتزلة إلى الأ باضية والعكس ، مما أوجب التخليط والتشويش ، فيذهب المؤلفون الذين يعتمدون على «النقل» إلى ما هو أشبه بالتهريج ، ولا عذر لهم عندي مطلقا لأن الذي ينشر الحق ، يطلبه من ينبوعه ، لا عن من يحتك حسب هواه .

---

(١) الأ باضية بين الفرق الإسلامية ، ص : ٣٦ .

وأما السبكي فيقول في طبقاته « إن المؤرخين على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وربما وضعوا في الناس تعصّبا أو جهلا أو اعتمادا على نقل من لا يوثق به » .

لقد دأب الشيخ الأباضي على يحيى معمر على تقصي تلك الكتب التي تصدر وتعنني بدراسة الفرق ، فذكر بأن الكتاب يصنعون رجالا وهميين ، ويختلقون أقوالا زائفة وغير صحيحة ، و ينسبونها إلى هؤلاء الرجال الصناعين ، و بالتالي ينسبونهم بأقوالهم الزائفة تلك إلى الأباضية فيقول :

« إن جميع الأشخاص الذين اعتبرهم(١) أبو الحسن إما رؤساء لفرق من الأباضية ، أو من مؤلفيهم ومتكلميهم لا وجود لهم عند الأباضية » .

الأباضية لا يعرفون شيئا عن هؤلاء الرجال وعن فرقهم .

فبعد أن ناقش أقوال القدامى من الكتاب الإسلاميين كان له لقاء مع الكتاب الاسلاميين المعاصرين الذي تبنوا نهج القدامى في الكتابة حول الفرق بدون أن يزيدوا في الموضوع شيئا ذا بال . فتحدث عن كتابة الأستاذ عبدالقادر شيبة الحمد المدرس في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة : فقال مستنكرا تحامل «الأستاذ عبدالقادر» على الأباضية ، ومفنّدا آراءه ومنتقدا أسلوبه «وهكذا يستمر الأستاذ شبية الحمد يحاضر لأبناء المسلمين من سبعين بلدا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ــ فلسفة تنسب إلى الفرق الإسلامية لا وجود لتلك الفلسفة عند تلك الفرق ، و يتخذ لها أئمة وعلماء لا تعرفهم تلك الفرق ، وتعرف عنهم شيئا . بل قد تبرأ من تلك المقالات ومن يقول بها(٢) .

و يضيف : « فكيف تسمح إدارة الجامعة العامرة في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تدرّس أباطيل عن فرقة من فرق المسلمين على طلاب سبعين بلدا من مختلف بقاع العالم . و يضيف «إذا كان التقليد الأعمى أو حب الراحة ، أو عدم العناية بالبحث والتنقيب ، أو حتى سوء النية ، هي الأسباب التي حملت

---

(١) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص : ٣٦ (٢) نفس المصدر السابق ص : ٩٨ .

«شبيبة الحمد» على تلك المواقف ، فكيف للجامعة العامرة أن تغفل عن مراقبة مايجري فيها في أهم ركن من أركان رسالتها ، وهي القوامة على كلمة الحق ، المسئولة عن العمل لجمع كلمة الأمة ، المطالبة بالتحقيق والتثبت والصدق في جميع ماتقدمه لأبناء الأمة في مجال العلوم الشرعية .

و يردف قائلا : كنا نأمل أن تعمل الجامعة الإسلامية على التحقيق فيما يقال عن فرق المسلمين وأن تأخذ آراءهم ومقالاتهم من كتبهم وعلمائهم ، و بذلك يمكن للجامعة أن تعلن كلمة الحق ، وتجمع الشمل ، وتوحد الصف ، وتكون مركز القيادة الوحيدة لهذه الأمة بجميع مذاهبها لأنها مهدت اللقاء بينهم على نور العلم وجعلت كل واحد منهم يعرف ماعند الآخر . أ هـ .

قلت : لو توفرت النية الصالحة لدى السعوديين لتبنوا هذه الخطة في رسم المناهج الدراسية في جامعتهم تلك ، فأهل من يعرفون بالفرق الإسلامية مجاورون لهم ، فالأباضية في عُمان ، فعُمان جارة لهم ، والشيعة الاثنا عشريون في العراق ، فالعراق جارة لهم ، والزيدية في اليمن ، فاليمن جارة لهم . بل فلا يستبعد أن يوجد أتباع لكل هذه المذاهب في البلاد السعودية نفسها كـ ـ ـين مما يسهل عليهم مهمة البحث من علماء مؤهلين لتدريس هذه المذاهب تدريسا سليما جادا نقيا بعيدا عن التحامل ، بدلا عن إناطة ذلك إلى علماء خارج تلك المذاهب ، فيكون في الأمر شيء من الاجتهاد . أو الافتراضات فالأخطاء .

و يواصل الشيخ علي يحيى معمر عرض آرائه وتمنياته إلى الجامعة الإسلامية ، فيقول «بل إننا نطمع في الجامعة في أكثر من ذلك ، وذلك بأن تكون لجانا للتأليف يشترك فيها علماء الأمة من مختلف مذاهبهم ، و يصدرون كتبا حسب المناهج المقررة في الجامعة لتدرس فيها ــ مشتملة على المقالات الحقيقية للفرق والمذاهب المعاصرة فعلا ــ و بذلك تقضي على النظرات الضيقة ، وتوقف زحف العصبية المقيتة . وتحول دون التأثير الفردي في توجيه الطلاب المسلمين .

إن الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة يجب ألا تصطبغ بمذهب معين فهي للمسلمين جميعا ، تقدم لهم الثقافة الإسلامية من منابعها الصافية ــ كتاب الله وسنة

رسوله ــ فإذا انتقلت بعد ذلك إلى كلام البشر سواء ما كان منه منسوبا إلى مذهب أو ما كان منسوبا إلى فرد ، فإنه يجب أن يعرض بوضوح ومن مصادر ثابتة» .

ونراه يتقدّم باقتراح إلى الجامعة ، وهو في رأينا اقتراح بناء ، بغية تفاهم المسلمين بعضهم بعضا . وهو اقتراح لو نفذته الدولة السعودية ــ وهي على ذلك قادرة ــ لاستحقت الشكر والثناء من كافة المسلمين ، لأنه عمل لو نفّذ لكان من شأنه رفع سوء التفاهم و بذر روح التآخي في الأمة» . وقال «وفي إمكانها أن تعقد مؤتمرا سنو يا لعلماء جميع المذاهب الإسلامية سواء كان ذلك أيام الحج أو في غيرها ، تطرح فيها القضايا الهامة وتوضح الآراء والعقائد بحججها و براهينها . وتزود الجامعة بالمراجع المعتمدة لكل مذهب ، و إيضاح الأقوال المعمول بها . على أن يكون هذا المؤتمرَ مؤتمر عرض وايضاح ، لا مؤتمر جدال يريد فيه كل أصحاب مذهب أن يبرهنوا على صحة مذهبهم و بطلان غيره الخ ....» .

فأنا أعتبر هذا الكلام كلاما رائعا وحكيما . بل هو في غاية الروعة والحكمة والصواب . إذا أريد للمسلمين التفاهم وتخلي التنابز بالألقاب ، ولو قدّر للفئات الصغيرة «عدديا» طرح آرائها وتصحيح معتقدات الناس بها لظهرت تفاهة ما يكتبه الآخرون عنها . والحق أن هذا الرأي لجدير بالاهتمام .

غير أني أعتقد بأن تنفيذه ليس بالسهولة التي تصورها صاحب الاقتراح ، فبعض الناس «من العلماء والحكام» يفضلون بقاء هذه الخلافات وسوء التفاهم ، لأن من مصلحة «علماء السوء» (اختلاف الناس) ليجدوا مادة خصبة كمبرر للافتراء على الغير بحجة الدفاع عن المحجة البيضاء ، وفلسفة الأمور ، وتأو يلها على نحو يزيد الأمور سوءا والأوضاع توترا ، وأما الحكام فمن المعلوم البديهي أنه كلما تطور سوء التفاهم بين طبقات الشعوب ، ازداد انشغالهم عن السياسة ومراقبة لعب الحكام . وهذا من شأنه أن يجعل الناس مشغولين دوما بأمور تتعلق بعلاقات بعضهم بعضا منصرفين انصرافا نهائيا عن مراقبة أعمال الحكام . وهكذا .

« وهل أفسد الدين إلا الملوك ــ وعلماء سوء وأحبارها » .

ولا شك أننا أطلنا الإنصات إلى الأ باضية وهم ينفون عن أنفسهم تهما

نسبت إليهم . فالغاية الوحيدة التي توخيناها هي إتاحة الفرصة لهم ليقدّموا أنفسهم إلينا كما يحلو لهم ، ونفهمهم كما يريدوننا أن نفهم ، وليس أن نفهمهم كما نريدهم أن يكونوا (فرضا عليهم) .

والحق أن ما ورثناه من تعدد المذاهب واختلاف الفرق والنحل يجب ألا نعتز به . بل علينا أن نعتبره ظاهرة سلبية تستحق المحاربة لا الاعتناء بها ، علنا نوحد صفوفنا . نعم .. ومما لا شك فيه أن هذه الفرق أصبحت ذات أصالة تاريخية ومن الصعوبة استئصالها من شأفتها . غير أن (الإسلام بلا مذاهب) زعيم بالقضاء على ظاهرة التشرذم هذه ، لو اعتنى بهذه الفكرة ، فلم الاستمرار في تدريس التلاميذ مشاكل الفرق . بل لأسماء فرق لم توجد ، ولم تكن يوما إلا في أسعار الكتب من وحي كاتبها ، دفعتهم إلى إيجادها دوافع لا تعنينا نحن اليوم ، والتمسك بتلك الأقوال ، وكأنها ماء ذهب أو ذائب ماس .

أليست هذه أساليب تحجير لعقول الشباب المسلم ؟ فوالله إنها لهي الرجعية بتفاصيلها .

فالأباضية ــ على ضوء ما تقدم ــ ليسوا بخوارج ، بل هم مذهب كأي مذهب إسلامي آخر ، وان كان هناك قاسم مشترك بين الأباضية والخوارج فهو ظهورهما إلى حيز الوجود في وقت واحد تقريبا ، وظهورهما إلى النور انبثاقا من قضية واحدة ، وقاسم مشترك . ألا وهو «رفض التحكيم» ، وعدم إقرار شرعية الحكم الأموي المتمخض عن تمرد معاوية على الإمام الشرعي المنتخب بالشوري نصا (أي الإمام عليّ) غير أنهما مختلفان باختلاف آرائهما ومبادئهما . بل لقد حارب بعضهم بعضا .

والحق أن علاقة الأباضية بالخوارج كالعلاقة بين الاشتراكية ، والشيوعية ، مثلا ، ولا اعتقدها مقارنة بعيدة الاحتمال سينكرها القارىء عليّ ، فبينما نرى في المفهوم الرأسمالي أن الاشتراكية والشيوعية موضوعتان في طابور واحد ــ رأسماليا ــ لتشابه المبادىء والبرامج ، نتيجة تشابه الظروف الممهدة لولادة هذه المبادىء . فإننا نعلم ونعترف أن الشيوعية غير الاشتراكية ، ولا يغرنا تشابه النزعة بينهما ــ نسبيا ــ والقاسم المشترك الوحيد بينهما هو رفض الفكر الرأسمالي ذي النزعة الاحتكارية .

فلا أحد منا ينكر اشتراكية جمال عبدالناصر ــ مثلا ــ غير أنه لا أحد في الوقت نفسه يتهمه بالشيوعية . لقد رأيناه عنيفا ضد مناوىء البرنامج الاشتراكي في بلاده ، ولقد رأيناه ــ أيضا ــ حربا على الشيوعيين في مصر وزجهم في السجون وأودعهم غياهبها . وعامل المعسكر الاشتراكي معاملة صديق وزميل في درب الكفاح ، لقاسم مشترك بينهما وهو «اليسارية» ورفض الفكر الرأسمالي ذي الجذور الإمبريالية ، ولم نتهمه بالتناقض في السلوك ، أو الشيوعية البحتة لاستعداد نفسي وثقافي فينا لتفهم موقفه وتفهم الفرق بين الاشتراكية والشيوعية (فلم ،إذاً ، لايكون لدينا نفس الاستعداد الثقافي والنفسي لتفهم دوافع المواقف لمختلف الفرق تاريخيا ؟ ثم تفهم سبب اختلاف آرائها في الاعتقادات الأ يديولوجية ؟

والحق أننا لو ألقينا نظرة على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، واستعرضنا الأنظمة الحاكمة فيها ، لألفينا معظمها اشتراكية الاتجاه والنزعة ، في حين أنها ترفض الشيوعية ، بل تحاربها بصدق وإخلاص ، ولا أحد يصر على تسميتها «أنظمة شيوعية» لإدراك الناس الفرق بين الشيوعية والاشتراكية إدراكا واضحا . وهكذا فقس العلاقة ــ أيامئذ ــ في التاريخ السحيق بين الفرق «الخوارج» و «الأ باضية» و «التشيع» و «السفيانية» (الولاء لبني أمية) لأن كل هذه الفرق ولدت من أب واحد ، وهو اختلاف الناس بعد مقتل ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، ثم مبايعة الناس أبا السبطين علي بن أبي طالب وتمرد أبي يزيد معاو ية ، وما واكبها من أحداث وحروب وفتن الخ ..

فبادىء الأمر كان كل من الأ باضية والخوارج والشيعة في صف الإمام علي ، تحارب الفئة الباغية «معاو ية وعمرو ومن معهما» . وعندما نجحت الحيل السياسية التي نسجها عمرو لمعاو ية «كخداع» ، لعلي ، تزعزع معسكر الإمام علي ــ وكان ذلك هو قصد عمرو وراء فكرة التحكيم هذه ــ فانقسم أتباعه إلى قسمين : قابلة للتحكيم ورافضة له ، قابلة للتحكيم باعتباره احتكاما إلى قاضي القضاة «القرآن الكريم» فالظاهر أن هذه الفرقة لم تتصور في أن أحدا يجرؤ على اتخاذ القرآن محل مناورة سياسية قصد إحراز نصر دنيوي خالص ومكاسب سياسية بحتة ، إلا أن الفرقة الأخرى الرافضة ، لم تنطل عليها هذه الحيكة ، فأدركت أن وراء الأكمة ما

وراءها . واستيقنت أن الدعوة إلى الاحتكام إلى القرآن مجرد حيلة لم يقصد بها الإذعان لحكم الله ، فرفض معاوية ــ قبل ــ الدخول فيما اتفق عليه المسلمون ــ مبايعة علي ــ رفض سافر وواضح لحكم القرآن ، فلا داعي ــ إذا إلى الاحتكام .

والظاهر في النصوص التاريخية ، أن الإمام عليا كان يميل إلى رأي الفرقة الثانية ــ الرافضة للتحكيم ــ لأنه كان يقول عنه إنه «كلمة حق أريد بها الباطل» وهو يشير إلى مسألة التحكيم إلى القرآن .

ولا شك أن الأباضية والخوارج ، كانوا من أشد رافضي قبول فكرة التحكيم ، بيد أن ظروفا أجبرت الإمام علي على قبول فكرة التحكيم أخيرا ، وأخيرا ظهرت نتائج التحكيم برسوب الإمام ونجاح «ابن هند» بالتفوق . وشرع صف الإمام يتضعضع تضعضعا دكه فيما بعد ، فأضحى رمادا .

وانقسم عليه أتباعه ، وانفلت من يديه زمام السيطرة على الأمور وتوجيهها طبق مصلحته وكما يحلو له ، كما كانت الأمور طيعة في يد خصمه ، غير أن فصول المآسي لم تنته هنا ، إذ عاين معاوية بشائر النصر تلوح له في الأفق ، وأصبح لا يرضى عن الانتصار الحاسم بديلا ، وذلك بالتوفيق الذي كللت به مهمة مندوبه ــ عمرو ــ في بلبلة أفكار مندوب الإمام ــ أبي موسى الأشعري ــ و بالتالي بلبلة أفكار أتباع الإمام وإحداث شرخ واسع في صفوف أنصاره . و بهذا كان الإمام على قد انهزم في المحكمة عن طريق مندوبه الضعيف ، ورأت مجموعة كبيرة ــ من أصحابه ــ بما فيهم الأباضية والخوارج « كانوا طائفة واحدة يومئذ » أن الإمام لم يعد إماما رسميا وشرعيا للمسلمين ، ذلك لأن مجرد قبوله لمبدأ التحكيم ــ تحت أي ظرف من الظروف ــ يوحي بأنه لم يعترف بنفسه (الإمام الشرعي) للمسلمين ، وأخرى ، وهي بما أنه قد قبل التحكيم رسميا ، فإنه مرغم ــ أدبا وقانونا ــ على قبول النتائج التي سوف تسفر عن ذلك التحكيم وتترتب عليه .

وعلى مستوى القيادة ــ قيادة الأمة ــ فان منصب « الخلافة » أو الزعامة الاسلامية بقي شاغرا مدة أيام الاحتكام حيث أوقف الطرفان الاقتتال (وقف اطلاق النار) للمفاوضة .

وهنا قامت المجموعة الرافضة التحكيم بشدة ، إلى تقليد أحدهم منصب « الخلافة » ، وهو عبدالله بن وهب الراسي بدون أن ينتظروا نتائج التحكيم ، لأنهم ــ مبدئيا ــ رافضون لخلافة معاوية ، وزعامته على المسلمين . فلم يكن هناك ، بالنسبة إليهم ، ضرورة تدعو إلى التريث لحين معرفة المنتصر ، وثبت في مفهوم المحكمة ، أن الإمام الشرعي قد تنازل عن حقه قبل اجراء انتخاب جديد ــ بدون شروط مسبقة ــ وعليه فلم تعد بيعته على عواتقهم .

و يبدو أن قوما آخرين قد تخلوا عن الإمام اثر قبوله التحكيم وانهزامه في نتيجة الاحتكام فضلا عن الخوارج والأباضية .

غير أن قوما كانوا يتعاطفون مع الإمام مائة في المائة ، و يناصرونه سرا وجهرة ، مناصرة مطلقة ، فهم قد ظلوا واقفين معه ، مدافعين عنه ، لايتأثرون بأى مؤثر خارجي طارىء ، فهم معه معية صادقة وكاملة ، لايراجعونه فيما يقبل أو يرفض ، لأنه ــ في نظرهم ــ لايقبل شيئا إلا بحكمة ولا يرفض آخر إلا لسبب . فهؤلاء هم الذين بقوا له شيعة وأتباعا مخلصين له ولذريته من بعده ومازالوا له شيعة ، ومازال لهم إماما حيا في قلوبهم « لامغمز في الإمام » .

غير أن حادثة الانشقاق عنه لم تتوقف ، بل لقد استمرت حوادث الانشقاق بين أتباع القدامي ــ سواء الموالين له ، أو الخارجيين عليه ــ فأصبحت ظاهرة مألوفة فيهم ، وكأن الله ابتلاهم به . فالخوارج انشق عنهم الأباضية فأصبحوا يشكلون فرقة خاصة بهم ، بعيدة عن الفكر الخارجي . والخوارج الغلاة أنفسهم مضوا ينشق بعضهم عن بعض إلى أن بلغوا فرقا متناوئة ومتقاتلة ، ولا أعتقد أن الأباضية نفسها قد سلمت من طاعون الانشقاق هذا ، وان كان بصورة غير حادة ، فأصبح لها فرق ــ وفي الواقع فرق أباضية لاينكرها الأباضيون لعدم وجود خلاف جوهري بينهم (١) ــ وشيعة الإمام عليّ أنفسهم لم يسلموا من وباء الانقسام هذا فانقسموا إلى زيدية واسماعيلية واثنا عشرية الخ .. على أن التشيع للإمام والولاء له حيا وميتا هو القاسم المشترك بينهم كشيعة .

---

(١) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص : ٢٥٣ .

أما الأباضية على ما يظهر فإنها سلكت سلوكا وسطا بين الأمرين ، فهي ما ناصرت عليا وشايعته بمجرد أنه علي لما له من مزايا ومناقب ومركز عظيم في الإسلام ، بل هي ــ أي الأباضية ــ كانت معه لاعتقادها أنه على حق ، ويمثل الحق . ولما تغير رأيها تركته بدون أن تكون له أو عليه .

وأما الغلاة من الخوارج فإنهم وقفوا منه موقفا لايقل عنفا عن موقفهم ــ وهم معه ــ ضد خصمهم المشترك « معاوية » أيام الصداقة والصفاء ، بل وعلى سائر المسلمين الآخرين ، مما يدل على أنهم ما كانوا يتبعونه لاجل شخصه ، بل لاجل ما كانوا يعتقدونه به ممثلا لرأيه الحق ، فلما تغير، تغيروا ، لأن تغير الظروف يؤدي إلى تغيير المواقف .

لماذا سمي الخوارج خوارج ؟

سبق وأن شرحنا أن الأباضية سموا بهذا الاسم نسبة إلى : إمامهم عبدالله ابن أباض ، كما وان لكل حزب رئيسا له وزعيما ، وحتى الهراطقة من الشيوعيين ، يعتبرون ماركس إمامهم . ولذا ينسبون إليه فيقال لهم « الماركسيون » .

غير أن السؤال هنا لماذا لم ينسب الخوارج إلى إمام لهم ؟ فيظل ــ مثلا ــ « الراسبيون » نسبة إلى عبدالله بن وهب الراسبي ، فالسنيون ــ مثلا ــ على الرغم من اشتراكهم في هذا اللقب (أهل السنة) إلا أن لهم أئمة ينسبون إليهم ، فيقال حنبلي ، شافعي الخ ... بل ولماذا سميت فئة معينة بالخوارج ؟ وما المسوغ لاطلاق كلمة الخوارج عليهم ؟ لأنهم خرجوا على الإمام علي ؟ وإذا كان خروجهم على الإمام هو الذي دفع الناس إلى أن يصيغوا لهم هذا الاصطلاح ، فهناك في المواقع من هم أولى بهذا الاسم وأجدر بهذا الاصطلاح .

فالذين يستحقون هذا الاسم ، أكثر من سواهم ، هم ، أم المؤمنين عائشة ، وطلحة ، والزبير . فهم أول من خرجوا عليه فحاربهم وحاربوه ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى معاوية وعمرو بن العاص ، فهما ــ ومن معهما ــ قد خرجوا على الإمام علي . بل وهم الخوارج الكبار ، لأنهم مصدر كل الفتن والمصائب التي حاقت بالمسلمين بتمردهم وعصيانهم وعدم قبولهم ما أجمع عليه أصحاب النبي وأصحاب أصحابه والتابعون .

غير أن كلمة الخوارج ما وسعتهم ، فلم ؟

والحق ان أولى الناس بهذا الاسم ، تلك الجماعة التي قتلت أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فهم كانوا قد خرجوا عليه وثاروا ضده ولم يهدأوا إلا حين قتلوه ، فهل عد هؤلاء خوارجا ؟

أما الأباضيون ، فلديهم الجواب حاضرا عن سبب تسمية الخوارج بهذا الاسم ، فيقولون ان المقصود بالخوارج هو مفهوم قرشي خالص ، وان معاوية هو الذي أطلق عليهم تلك الكلمة لأنهم بايعوا إماما غير قرشي وهو عبدالله بن وهب الراسبي ،

فرأت قريش ــ بما فيها الإمام علي نفسه ــ ومعاوية وعمرو أن القوم ــ الخوارج ــ قد خرقوا قواعد « اللعبة » ، واعتدوا على الأثر القائل « الأئمة من قريش » ، والمفهوم من هذا ــ ضمنا ــ أن النزاع حول الزعامة لقيادة المسلمين منطقي ومتصور مادام منحصرا في يد قريش وحدهم « كقبيلة » . واما إذا جاوزهم وتعداهم فلن يطاق « فهناك الخروج عن المألوف » .

وقال أطفيش ــ وهو أحد كبار علماء الاباضية ــ ان الإمام عليا حارب الخوارج في موقعة النهروان ، لا لأنهم انشقوا عليه بل لأنه رأى أن البيعة حصلت لأزدى لا لقرشي . وحاربهم قبل أن يتقوى أمرهم ، فتخرج الإمامة لغير قريش ، وهذا هو السبب الوحيد لواقعة النهروان . و يضيف قائلا « وليس ــ اذا ــ ما يزعمه محرفو التاريخ ومتعفنة المذهبية ، أن واقعة النهروان كانت بسبب الخروج على علي لأنهم لم يخرجوا والبيعة في أعناقهم ، فليتنبه المتبصر من الزلة في هذا المقام ، فإن الأهواء متغلغلة في أصحابها بما لا خفاء فيه » . و يضيف « ان تسمية الخوارج لم تكن معهودة في أول الأمر ، وإنما انتشرت بعد استشراء أمر الأزارقة ، كما قلنا ولم تعرف هذه التسمية في أصحاب علي المنكرين للتحكيم والراضين به . ولعل أول ما ظهر هذا اللفظ بعد ثبوت الأمر لمعاوية والاستقرار فيه حين زاره الأحنف بن قيس التميمي وهو من أهل النهروان ، فقال معاوية له « لماذا أحبك الناس ، وأنت من الخوارج ؟ » فقال له الأحنف : « لوعاب الناس الماء ما شربته » .

و يضيف أطفيش قائلا : « أترى أن معاوية يصف الأحنف بن قيس بالخارجية ، لأنه كان مع حاربهم علي يوم النهروان ؟! ، أو لأنه لم يكن في بيعة معاوية . ولو كان وصف معاوية للأحنف بالخارجية لكونه من أهل النهروان ، لكان معاوية ومن معه أولى بهذا الوصف ، لأنه هو الذي سل السيف ضد علي ومن معه يوم صفين ولأنه هو الذي جنح عن بيعة الإمام علي . والحال وقد بايعه أهل الحل والعقد ، فأصبحت بيعته حقا يجب اتباعه والدخول فيه على كل واحد من المسلمين » (١) .

---

(١) الفرق بين الأباضية والخوارج ، ص : ٩ .

والحق ان هذا التفسير الأباضي لنشأة اسم (الخوارج) أو سبب اطلاقه على المحكمة فيه شيء من الطرافة بلهجة معبرة ، لأنه لو كان كل خارج على السلطة الشرعية سمي خارجيا ــ كاصطلاح للتمرد والعصيان عامة ــ لأصبح اصطلاحا مألوفا في اللغة العربية ، مما يؤيد ــ نسبيا ــ رأي الأباضية . فالعادة الاجتماعية واللغوية ما جرتا على تسمية الثوار « خوارج » ، أو الفئات المناهضة للدولة « خوارج » . أو الجنود الذين يتمردون على حكم المدنيين فيقومون بالانقلاب بأنهم «خوارج» ، إذا ــ فأباضيا ــ أن الخوارج لفظ أطلق عليهم لأنهم رفضوا عليا بعد أن كانوا معه ، بل ورفضوا أيضا حصر الزعامة الإسلامية في يد « قريش » وعقدوا لواءها لمسلم يرى الإسلام منتهى النسب لا النسب العرقي .

والصحيح أن كثيرا من الناس الذين كانوا في معسكر الإمام ــ غير الشيعة والخوارج ــ قد انضموا إلى معاوية ، وأصبحوا له سامعين طائعين بل ومدحوه في خطبهم وشعرهم ــ وان مجاملة ــ فهؤلاء لم يسموا بخوارج لأن انضمامهم إلى صف معاوية ، واظهارهم الولاء له قد شفعا لهم ، ونجاهم بالتالي من « وصمة الخوارج » ، وان كانوا غير مخلصين له . لأن انتقال الزعامة من يد علي إلى يد معاوية ليس أكثر من تحول اللواء من قرشي جدير ومحقّ ومناسب إلى قرشي « مزاحم » غير جدير ولا محق ولا مناسب . غير أن الحظ بجيوشه وقف وراءه .

يقول أطفيش في المرجع السابق « ولكن الذي يمحص التاريخ بإنصاف وعلم يرى في إطلاق لفظ الخوارج على الأباضية ــ وهم من الخوارج براء ــ مغزى ، وهو أنهم رأوا أن الإمامة لا تختص بقريش ، بل هي تصح لكل من إختاره المسلمون لسياسة دولتهم ورياستها . وهذا هوالحق الذي دل على كمال البصيرة إذ ليس من الحكمة أن يجعل الله أمر البشر على سائر أجناسه وأممه تابعا لقبيلة واحدة أحسنت أو أساءت . الخ » .

وفي ضوء ما تقدم ، نفهم من رأي الأباضية أن سبب إصرار الأمويين والعباسيين على السواء على اطلاق اسم الخوارج على الغلاة والمعتدلين هو :

١ ــ رفض التحكيم ، ثم بعد وقوعه وانجلاء نتائجه ، استمرارهم الرفض في العودة إلى صف الإمام علي ، وانتخاب واحد منهم (من غير قريش) إماما له ودعوة باقي المسلمين إلى الانضمام إليهم والطاعة للإمام الجديد « أزدي » .

٢ ــ رفضهم البات والسافر أن تكون الإمامة لقريش وحدهم وهنا فهم في حرب ضد (معاوية وعلي) وذريتهما ، وهكذا كان الأمر ، فالامويون ظلوا يحاربون « الخوارج » ومعاوية هو أس الحكم الأموى ونواته . وكذا العباسيون ، فمن المعلوم أنهم ــ العباسيين ــ كانوا في أول عهدهم علويين وشيعة له ، وذلك قبل أن تسمح لهم الظروف والحظ متضافرين فيحولوهم من علوية إلى عباسية .

والشيعة أيضا شأنهم كشأن أولئك الذين انضموا صراحة أو تقية إلى صف معاوية من حيث النجاة من وصمة « الخوارج » فمعاوية لم يصر على دعوة « شيعة الإمام » « خوارج » عليه ــ معاوية ــ مما يكاد يؤيد النظرية الأباضية في سبب اطلاق لفظة الخوارج على الخوارج أى رفض حصر الزعامة في يد قريش .

فالشيعة ، وان كانوا ضد الحكم الأموي ، والعباسي لاحقا ، فانهم ليسوا ضد « تركيز السلطة في يد قريش » لأن نظرية الإمامة لديهم ــ وهي بيت القصيد في مذهبهم ــ تؤكد ولاءهم لقريش عامة ، ولبنى هاشم خاصة ، وأبناء علي في خص الخاصة . فهم ــ إذا ــ «قرشيا» ليسوا بخوارج ، وان كانوا خوارج على «بعض» قريش من الأمويين والعباسيين لأنهم لم يخرجوا على الأثر « الأئمة من قريش » .

غير انى قبل الانتقال إلى نقطة أخرى أود أن أعلق على نقطتين هامتين مبديا رأيا مخالفا لما ذهب إليه العالم الأباضي أطفيش ، حيث قال « فرأى علي بن أبي طالب أن البيعة حصلت لأزدى لا لقريش وحاربهم قبل أن يتقوى أمرهم ، فتخرج الإمامة لغير قريش ، « وهذا هو السبب الوحيد لواقعة النهروان » .

فأنا أعتقد أن في هذا التصريح شيئا من المبالغة أو اطلاق الكلام على عواهنه ، فلو قال مثلا : وهذا من جملة الأسباب لواقعة نهروان ، لجاء كلاما يستحق الإصغاء . وأما التعميم ففيه إسراف في رأيي ــ فنحن نعلم أن حرب الجمل سبقت واقعة النهروان . فهي حرب خيضت تحت قيادة ثلاثة من زعماء قريش وهم طلحة ، والزبير، وأم المؤمنين عائشة ، وهم قرشيون لايفضلهم علي شيئا يوم النسب قبليا .

غير أن عليا حاربهم ، بل بدأ بهم ، إلى أن هزمهم . فلو كانت المسألة (قضية قبلية) ، لتركهم « علي » وشأنهم .

ومعاوية نفسه لايشك في قرشيته ، وان كانت قصة إيمانه تقبل العرض على بساط المناقشة ، أو الأخذ والرد ، فعلي نفسه لم يشك ولم يشكك في قرشية معاوية يوما ، فحتى أولئك الذين أشبعوه حقدا وكرها وازدراء ، لم يشككوا في نسبه كقرشي قط ، وان كانوا قد شككوا في صحة نسبه إلى أبي سفيان كأب شرعي له ، حيث نسبوا بنوته إلى أحد الشيوخ من قريش « شيخ لامع جدا من بينهم » (١) وأكيد ان معاوية لم يكن يضع وزنا لهذه القيم الاجتماعية والدينية أو يجد غضاضة أو خجلا في هذا القيل والقال ، وإلا لما استلحق زياد ابن أبيه ، شاهدا لأبيه بذلك ممارسة الخنى ولو كان يحفل ما يقول الناس والشرع لستر شيخه .

وآخر يجب التنويه به ، هو أن قوله : « فرأى ابن أبي طالب أن البيعة حصلت لأزدى لا لقرشي ، الخ .. « يوميء أن تلك الحرب كانت مجرد حرب قبلية ، وهذا غير مستساغ ، فعلي ليس من الرجال الذين يغضبون لأجل نعرة قبلية وهو ربيب رسول الله ، ورضيع أسلاف الإسلام الأولى . فعلي كان أكبر منتقد لأعمال عثمان حين بدأ يحابي أهله وأقرباءه . بل فعثمان نفسه كان يقول له : « وهم أقرباؤك أنت أيضا » عندما كان علي ينكر عليه تفضيله أقرباءه . « وهم » لا شك من قبيلة « علي » دما ، غير أن عليا ، وهو علي ، لايمكن بل و يستحيل أن توجد فيه نزعة قبلية .

والنقطة الأخرى ، وهي قول أطفيش « وانهم ــ أى الأباضية والخوارج حقا ــ رأوا أن الإمامة لاتختص بقريش . بل هي تصح لكل من ينتخبه المسلمون الخ » .. ليس سببا كافيا لتسميتهم خوارج ، لأن الأنصار كانوا ــ قبل ــ قد جادلوا أبا بكر في مسألة الزعامة فقالوا (منا أمير ومنكم أمير) . فلو كانوا مسلمين بأن

---

(١) انظر « أحاديث أم المؤمنين عائشة » لمرتضى العسكري .

الزعامة الإسلامية تعقد فقط لقريش لما قالوا ما قالوه ، وهم أنصار النبي وأصحابه ، وقريش لم يسموهم خوارج .

على أني لا أجرد أطفيش عن كل الحق فيما قال ، لولا استعماله تعبيرا يفيد الحصر والتحديد في « السبب الوحيد » إذ ليس هناك ما يمنع أن يكون رفض الخوارج هيمنة قريش على الأمر هو ما ألحق بهم هذا الاسم (الخوارج) ، ولكنه ليس السبب الوحيد .

هل الخوارج كفار؟

قد يكون الأمويون يرون أن الخوارج ليسوا بمسلمين ، وقد يرى بعض الناس رأى الأمويين ، إلا أننا اليوم ــ كدارسي التاريخ ــ لا جنود في صف هذا أو ذاك ، لنا رأينا الخاص في كلا الطرفين . لأننا لم نعد نخشى سيوف بنى أمية ، ولا نتقى حذرين عيونهم المبثوثين في كل مكان لرصد كلام الناس أو ميولهم ، ثم محاسبتهم ، كما أننا لم نعد نخشى غارات الخوارج وحملاتهم أو تسلل مغاو يرهم إلينا ، لذا نستطيع ــ بحرية مطلقة إصدار أحكامنا بحقهما بدون تمييز .

صحيح أن القوة زائد « الإعلام القوي » يساوى « الانتصار معنويا » ، وهما كافيان لتقليب الحقائق رأسا على عقب ، كما هو الحال في عصرنا تماما حيث تقوم الدول الكبرى باعتداءات مكشوفة ضد الدول الصغرى ، غير أنها لما لها من قوة عضلية وقوة قولية ــ إعلامية ــ تستطيع ذر الرماد على الأعين ، وإسكات الخصم وتمويل حقه . الناصع باطلا حالكا .

غير ان النجاح في كم الأفواه حينا من الدهر لا يعنى النجاح في إبقائها مكممة أبد الدهر ، وعبر الأجيال المتعاقبة ، فكم من زعيم خرج على نظام ، واستطاع النظام ، ونجح في تشويه سمعته وتسفيه دعوته واستعباط مبادئه وآرائه ، وتقزيم عقله ورمي القاذورات بسمعته ، وقضى عليه بالنفي أو بالاعدام . فإذا بالناس يعيدون له اعتباره بعيد حين ، و يطلقون اسمه على العريض من الشوارع تخليدا لذكراه ، فكم الأفواه ، ولجم الألسن ، وربط الأعين ، بخرق سوداء ، وسائل غير كافية لإبادة الحقائق إلا زمنا يسيرا .

فالخوارج مهما قيل في شأنهم ، فإنهم مسلمون ، وإسلامهم قد يكون أنصع من إسلام وإيمان بنى أمية ، وبعض علماء أموية الذين كانوا يصدرون الفتاوى لهم ويصنعون الأحاديث للرفع من شأنهم .

ولم يرعالم في عصرنا نحن كتب عن الخوارج ، وحمل عليهم ، وهاجم عقيدتهم ، ووصمها ووصفها بالعقيدة الفاسدة ، بل لقد أضحى الذين يكتبون عنهم يصفونهم بأنهم يمثلون الإسلام الأول على فطرته قبل أن تدخل فيه تعاليم من الأمم الأخرى ، والديانات الأخرى ، والتقاليد والنزعات من أهل الملل والنحل التي دخلت في الإسلام بعد ، وظل إيمانهم إيمان قلب ، لا إيمان علم ، يتحلون بعقيدة راسخة لا تزعزعها الأحداث (١) ، ووضوح الرؤية في المعتقدات وسلامة في التعبير بها وسلوك واضح لا فلسفة فيه ولا جدل ، لا عوج فيه ولا غموض .

والحقيقة أن الخوارج لا يستطيع أحد وصفهم بما يوصف به باقي المسلمين لأنهم أقروا الشهادتين ، فكل من شهد بهاتين الشهادتين يغدو مسلما ، اللهم إلا إذا أنكر ما ثبت عن الدين بالضرورة من غير تأويل كإنكار الجنة أو النار ، أو البعث أو الحساب مثلا . خطأ أى مسلم محمول عليه ، ومع ذلك فالخطأ لايخرج عن عموم الملة الإسلامية . والحقيقة أن تشريك المسلمين ليس بالأمر الهين .

لماذا ترفض الأباضية الانتماء إلى الخوارج ؟

لا يكاد الدارس والباحث لتاريخ الأباضية والخوارج يجد فرقا واضحا بينهم ، فهم من حيث المبادىء والنزعة والسلوك شيء واحد أو شديد التداخل والتشابه . ومحاولة التمييز بين الأباضية كفرقة ، والخوارج ، يقوم بها غالبا الكتاب الأباضيون ، لأنهم — كما رأينا — لايعتبرون أنفسهم خوارج ، بل ينفرون جدا ممن يصفهم بالخوارج . فعندما نقرأ لشاعر أباضي قصيدة تكاد قصيدته تلك تأتي نسخة مكررة من حيث المعاني عن تلك القصائد التي تعزى إلى شعراء من الخوارج . تفوح منها رائحة العنف ، ضد الظلم ، ويثور منها غبار المعارك ، غير أنها معارك ضد

---

(١) انظر ضحى الإسلام . والكتب الشبيهة له .

المعتدين والمستخفين بحدود الشرع . وأعتقد أن مهمة غربلة الأباضية عن الخوارج ، أو استصفاء أحدهما من الآخر غير هينة .

ولكن الأباضيين يرون أن تشابه المواقف أو الاتفاق والمطابقة في بعض الآراء لا يعني بحال « وحدة المبادىء » و يقولون « لا يعني تقارب المذاهب أن مصدرها واحد ، فالأباضية يتفقون مع الخوارج في بعض الآراء ، و يتفقون مع الأشاعرة ــ من أهل السنة ــ في بعض الآراء ، و يتفقون مع المعتزلة في بعض الآراء ، أو هل يقال إنهم معتزلة أو أشاعرة أو غيرهم لمجرد اتفاق الآراء ، بل إن الأشاعرة يتفقون مع الخوارج في بعض الآراء ، ويخالفون المعتزلة ، ونجد المعتزلة أيضا يتفقون في بعض الآراء مع الخوارج ، ويخالفون الأشاعرة ونجد المعتزلة أيضا يتفقون مع الأشاعرة في بعض الآراء ويخالفون الخوارج ، وهناك تقارب في بعض آراء الشيعة والمعتزلة ، أو يقال إن تقارب آراء المعتزلة بآراء الشيعة ، يجعلهم من الشيعة ، أو تقارب بعض (١) آراء الشيعة بآراء المعتزلة يثبت أن الشيعة من المعتزلة ، وأن الفارق بين الأباضية والخوارج إنما هو في « الغلو والاعتدال » فالأباضية معتدلون ، بينما الخوارج غلاة . لقد عرف الأباضية في اعتقادهم وفي سلوكهم وفي سلمهم وفي حربهم أنهم من أعدل الطوائف ، ومن أكثرها التزاما بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، في حين أن الخوارج يحكمون على جميع المسلمين بالشرك ، و يعاملونهم معاملة المشركين و يستبيحون سفك دمائهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم ، بينما الأباضية أكثر الفرق اعتدالا من هذه الناحية . فلنسمع إلى أحد علمائهم وقادتهم وهو الإمام طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندى رحمه الله الذى أعلن في جامع صنعاء قوله ، وهو قول يعكس بوضوح عقيدة الأباضية وآراءهم تجاه المسلمين الآخرين . فقال : « الناس منا ، ونحن منهم ، إلا مشركا بالله ، عابد وثن ، أو كافرا ، أو متسلطا في الأرض يحكم بغير ما أنزل الله .

---

(١) في حوار مسجل مع سماحة مفتي سلطنة عُمان الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ، وأجرى الحوار معه في منزل سفير سلطنة عُمان في دلهي السيد/أحمد حمود المعمري ١٩٨١/٤/١٥ .

وقال الأستاذ عامر علي عمير المرهوبي ، « في الماضي كانت كلمة الخوارج تستخدم إشارة إلى هؤلاء المسلمين الذين خرجوا للقتال في سبيل الله ، ولكن معناها تحول تدريجيا إلى هذا المعنى المشوه ليصبح وصمة ، وهذه الوصمة هي التي يرفضها الأباضية (١) .

و يقول علي يحيى معمر عن رفض الأباضية الانتماء إلى الخوارج « وجريمة الأباضية أنهم لم يريدوا أن يقفوا في الطابور الذي أراد أن يصنفهم فيه كتاب المقالات المتحيزون ، و بعض المؤرخين الموجهين ، ومن ينعق وراءهم (٢) و يقول أيضا « وهذا الموقف نفسه مايريده المؤرخون وكتاب المقالات ، وحتى بعض المفكرين المعاصرين من حملة الشهادات العليا ، أنهم يريدون أن يفرضوا على الأباضية بأنهم خوارج ، وأن ينسبوا لأنفسهم ــ باعتبارهم خوارج ــ عقائد وآراء لايقولون بها ، بل يعتبرون القائلين بها كفارا وليس هذا فحسب ، بل عليهم أن يعتزوا بذلك الموقف كأنما الأباضية « فرقة مسرحية » تنظر أوامر المخرج (٣)

و يقول أيضا تحت عنوان « مفاهيم يجب أن تختفي » :

« يسبق إلى أذهان الناس الثقة بمذاهب معينة ، فيتم فيها الرضا على جميع من ينتمي إلى تلك المذاهب دون نظر إلى مقاله أو سلوكه ، و يسبق إلى أذهانهم السخط على مذاهب أخرى فيسخطون على كل من ينسب إليه دون نظر إلى مقاله أو سلوكه . وهو مفهوم خاطىء ، فإنما يجب أن ينظر إلى كل المذاهب بالثقة ، أما الأفراد فينظر إليهم بحكم أعمالهم وأقوالهم ، وعليها وحدها تبنى الأحكام(٤) » .

وتحت نفس العنوان يقول :

« سبق إلى أذهان كثير من الناس ــ بسبب أخطاء المؤرخين وكتاب المقالات ــ أن الأباضية فرقة من الخوارج ، وإنها في عقائدها وآرائها معتدلة بالقياس إلى الخوارج ، ومتطرفة بالقياس إلى أهل السنة ، وهذا مفهوم خاطىء ، ويجب أن يختفى ، فالأباضية ليسوا من الخوارج (٥) » .

---

(١) عمان قبل و بعد الإسلام ، ص : ٢١ ، ط وزارة الاعلام والثقافة ١٩٧٦م .

(٢) الاباضية بين الفرق الاسلامية ، ص : ٤٢٨ . (٣) نفس المصدر ، ص : ٤١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص : ٤٠٥ . (٥) نفس المصدر ، ص : ٣٥٢ .

معتقدات الاباضية

معتقدات الأباضية هي نفس المعتقدات التي نزل بها القرآن الكريم ، فثبتت فيها السنة الصحيحة التي لا ريب فيها عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . فالأباضية يعتمدون في معتقداتهم على الأدلة القطعية . فلذلك يأخذون بكتاب الله وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القطعية المتواترة ، وأما الأحاديث الآحادية فإنهم يقبلونها بالأعمال ، لا يأخذون بها في المعتقدات لأن الاعتقاد ثمرة اليقين ، واليقين لايحصل بالحديث الآحادي لكثرة التناقضات التي تأتي أحيانا في الروايات لهذه الأحاديث الآحادية في حين أن رواية الحديث المتواتر لايوجد فيه أي تناقض .

فجميع معتقدات الأباضية تدور حول شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأن ما جاء به حق من عند الله ، وهذه الجمل الثلاثة يطلقون عليها اسم « الجملة » ويطلقون على ما عداها من تفاسير المعتقدات « التفسير » لهذه الجملة ، وهم يكشفون عن أى إنسان بأن يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاذا ما شهد أحد بهاتين الشهادتين اعتبروه أخا لهم ، وجرت عليه جميع أحكام الإسلام عندهم . إلا إذا نقض هاتين الشهادتين باعتقاد شيء يخالف ما ثبت من الدين بالضرورة . والعالم الأباضي الإمام نور الدين السالمي يقول مجملا نظرتهم في ذلك :

ونحن لا نطالب العبادا ... فوق شهادتيهم اعتقادا
فمن أتى بالجملتين قلنا ... إخواننا وبالحقوق قمنا
إلا إذا ما أظهروا ضلالا ... واعتقدوا في دينهم محالا (١)
قمنا نبين الصواب لهم ... ونحسبن ذلك من حقهم
فما رأيته من التحرير ... في كتب التوحيد والتقرير
حل مشاكل ورد شبه ... جاء بها من ضل للمنتبه (٢)
قمنا نردها ونبدى الحقا ... بجهدنا كي لا يضل الخلقا (٣)

---

(١) وفي النسخة التي طبعت بمطابع العالمية : سلطنة عمان قوله : (إلا إذا ما تقضوا المقالا واعتقدوا في دينهم ضلالا) . (٢) من ظل ؟ أعتقده (من ضل) .
(٣) وفيه : كيما يضل الخلقا .

واعتقاد المذهب الأباضي يقوم على تنزيه الله سبحانه وتعالى من مشابهة خلقه ، فهم يحاولون جهدهم أن ينزهوا الله سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بعظمة الربوبية وجلال الألوهية ، ولا يصفونه بأى صفة من صفات المخلوقين . وإذا كان اعتقادهم يقوم على تنزيه الحق سبحانه وتعالى عن جميع صفات المخلوقين ، فلابد إذا من أن يؤولوا الآيات المتشابهة و يردوها إلى الحقائق التي ثبتت في الآيات المحكمات وتأويل المتشابهات يبنى على ما عرف عن اللغة العربية إنها تنقسم إلى حقيقة ومجاز (١).

والثابت أن المسلمين باختلاف مذاهبهم فإنهم ليسوا بمختلفين في جوهر العقيدة الإسلامية . والحق أن من ألقى نظرة فاحصة متجردة يجد أن معظم ما اختلفوا فيه اختلافا حادا ، أمور لها صيغة دنيوية بحتة ، وإن كان قد أقحم في مسائل الدين .

لقد جاء في « أصدق المناهج في تمييز الأباضية من الخوارج » في مسألة الحكم والاعتقاد عند الأباضية قوله :

« أسس الحكم عند الأباضية ، الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، وعلى هذه الثلاثة المعتمد ، فحلالها حلال ، وحرامها حرام ، لا هوادة في ذلك ، ولا اختيار لأحد بعد ما جاء في هذه الأصول الثلاثة ، ثم القياس ، ثم الاستدلال . ومن القدح الكبير في الأباضية قولهم : إن الأباضية لايقولون بالإجماع ، وأنت خبير أن الإجماع أحد الأصول الثلاثة ، فكيف لايقول به الأباضية (٢) » .

« أعمال الأباضية في الأمور العلمية أعمال رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لم يفارقوها قيد شعرة ، وأعمال الإمامين الراشدين بعده ، أبي بكر وعمر ، فما كان لهما فتراه للأباضية ، وما مشيا عليه ، مشى عليه الأباضية أيضا في كل لحظة ، وهكذا » .

---

(١) في حوار مع الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ، مفتى السلطنة ، « وهو أباضي طبعا » .

(٢) أصدق المناهج في تمييز الأباضية من الخوارج ص : ٢٦ ، من مطبوعات وزارة الثقافة والتراث القومي . تحقيق الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، أستاذة التاريخ الإسلامي . كلية البنات ، جامعة عين شمس (القاهرة) .

وفي الخلافة يقول صاحب أصدق المناهج « ولا يرون القرشية في الإمامة شرطا ، لأن ذلك يخالف المعقول ، ولم يجعل الله النبوة في قوم خاصين ، فكيف يجعل الإمامة كذلك ؟ مع أن القرآن لايدل على ذلك ، بل يدل على « أن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، و يضيف « ولم يثبت الأنصار القرشية في الإمامة ، وهم من أعلم علماء الصحابة ، ولو أثبتوها لما طالبوا في الإمامة » الخ .. (١)

وجاء في كتاب « عمان في فجر الإسلام » قول الكاتبة سيدة اسماعيل كاشف « والحق أن فقهاء ومؤرخي الأ باضية قديما وحديثا يؤكدون أن مذهبهم هو الإسلام القائم على القرآن الكريم ، وعلى الأحاديث النبو ية وعلى السنة الشريفة ، وعلى الاجتهاد ، وعلى آثار أئمة الهدى والعلم بالله (٢) .

وفي معرض ذكره « الإيمان» عند الأ باضية ، قال صاحب أصدق المناهج « الإيمان عند الأ باضية قول وعمل واعتقاد . و بالقول تعصم الدماء والأموال ، و بالعمل يصح الإيمان العملي ، و بالاعتقاد يتحقق الإيمان الصادق . وهو الذي يقول فيه الأ باضية بأنه يزيد ولا ينقص بل إذا انهدم بعضه ، ينهدم كله للأدلة الصحيحة الصريحة التي لا يرتاب فيها أحد . أما الإيمان العملي فهو الذي يزيد و ينقص كما هو معلوم . فالأ باضية موافقون على زيادته ونقصانه . وقول لا إلٰه إلا ا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى آخر عروة الإيمان ، وابتناء الإسلام على قواعده الخمسة صحيح عند الأ باضية (٣) .

---

(١) عمان في فجر الإسلام ، ص : ٥٠ ط وزارة التراث القومي والثقافة .

(٢) نفس المصدر ، ص : ٢٨ .

(٣) أصدق المناهج ، ص : ٣٣ .

الأباضية تقول عن نفسها

تمشيا مع المنهج الذى التزمناه في هذا الكتاب ، وهو الأمانة المطلقة في عرض آراء الأباضية إلى الناس سالمة وسليمة ، أجرينا حديثا مع الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ، مفتي سلطنة عمان ، وهو ــ كما يشير إليه اللقب الذي يحمله ــ واحد من الأعلام الشقات من العلماء في المذهب الأباضي ، والحكمة في ذلك محاولة استقاء المعلومات المتعلقة بهذه الفرقة من ينبوعها الصافي ، وبغية نقل القارىء مباشرة إلى الفكر الأباضي ، وكأنه يحاورهم ليعرفهم عن كثب وبدون واسطة أو ترجمان . فعندئذ يستطيع أن يكون عنهم رأيا خاصا مستمدا من مصدر معتمد به ، ووثيق ، وهذا المصدر هو الأباضية أنفسهم . ووازعي في ذلك هو الرغبة في إيصال أفكارهم إلى الناس وهي حقا تمثل رأيهم الصحيح ، وتعكس معتقداتهم بجوهرها ، ذلك لأن مبدأ إثبات فساد معتقدات الغير ، غير وارد عندي . بل الوارد هو تعريفهم بالناس على حقيقتهم ، وهو أنصف لهم ، ولغيرهم كي لا يضل الغير وهو أحرى أيضا للعلم ، ذلك لأن من حق القارىء على الكاتب أن ينقل إليه معلومات صحيحة من مصادر موثوقة في الحقل الذي يكتب فيه ، وإلا تحمل الكاتب ــ بالإضافة إلى وزر الغش والتمويه في العلم ــ وزر ومسؤولية شحن دماغ القارىء بمعلومات مزورة ، يظن القارىء بما لديه من معلومات انه على جانب من المعرفة في حين أنه لايعلم بأنه مخدوع ، وانه وقع ضحية لكاتب خدوع مزور غشاش .

وسألت سماحة المفتي لسلطنة عمان أن يتفضل بتعريف القارىء بالمذهب الأباضي ، فأجاب سماحته قائلا : (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا رسول الله ، وبعد ، إن المذهب الأباضي ذو تاريخ واضح وعميق تمتد جذوره إلى أعماق تاريخ الإسلام والمسلمين . فدعني أنتهز هذه المناسبة الأخوية لأعلن للمسلمين جميعا بأن المذهب الأباضي الذي نتبعه قائم على الكتاب والسنة ، لايختلف في ذلك مع باقي المذاهب الإسلامية لأنه لا اختلاف حول الكتاب والسنة » .

---

(١) حوار مسجل مع سماحة مفتي سلطنة عمان ، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في مسقط/عمان . ١٩٨٠/٦/١٠ م . مع شيء من التصرف .

وأما تسمية مذهبنا « بالأ باضية » فإنها تسمية قد بدأت في عصر الإمام عبدالله بن أباض « عند غيرالأ باضية » .

وأما الأ باضية أنفسهم ، إنهم ــ أول الأمر ــ ما كانوا يقرون هذه التسمية عليهم ــ كفرقة ــ ولذلك نجد أن الكتاب الأ وائل من الأ باضية كحتات بن كاتب ، وسالم الهلالي ، وأبي عبيدة مسلم أبي كريمة التميمي ، والربيع بن حبيب ، ووائل الحضرمي ، وغيرهم من علماء الأ باضية ، لن تجد في ثنايا كتاباتهم ذكرا لاسم « الأ باضية » ، بل إنهم كانوا يطلقون على أنفسهم كلمة « المسلمين » ، لأنهم يرون ــ وحق لهم أن يروا ــ أن خير ما يوصف به المسلم « الإسلام » ، وخير ما يتصف به المسلم صفات الإسلام وأخلاقه . فهم ما كانوا يريدون لأنفسهم تسمية تميزهم عن الأمة الإسلامية ولكن بما أن هذه التسمية قد شاعت وانتشرت في أوساط الكاتبين ، فلم يجد الذين سموا بها غضاضة في قبولها بعد ما مضى عليهم ، وهم يسمون بها غير معتزفين بها نحو قرنين من الزمن . فبدأت هذه التسمية في القرن الثالث الهجري تنتشر بين أوساط الأ باضية أنفسهم ــ إذا ــ لقد وضح ــ كما رأينا ــ بأن غير الأ باضية هم الذين كانوا يسمون الأ باضية بهذه التسمية منذ القرن الأ ول الهجري ، أي في عهد عبدالله بن أباض الذ ي يفهم من كلامه أنه ادرك معاو ية بن أبي سفيان .

وأما الإقرار والاعتراف بهذه التمسية عند هذه الطائفة نفسها ــ الأ باضية ــ فقد بدأ في القرن الثالث الهجري ، وأما تميز واستقلال هذه الطائفة بآرائها وأفكارها وتبلور معتقداتها ، فإنه قد بدأ منذ عهد الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد الذي كان يعرض آراءه ، لمن يصطفيه ويختاره و يطمئن إليه من المسلمين . فقد كان يبين مخالفة الخوارج لكلمة الحق ، حيث يكفرون أهل التوحيد ويحكمون عليهم بأحكام المشركين ، فترتبت على ذلك استباحتهم لدمائهم وأموالهم وسبي ذراريهم . ولقد جاء الرد على الخوارج في كتابات الأ باضية القدامى ، كسالم بن ذكوان ، الذي هو من علماء أوائل القرن الأ ول الهجري وأوائل القرن الثاني ، مما يفهم أن الأ باضية والخوارج على طرفي نقيض ، وليس كما يفهم الناس أى أن الأ باضية خوارج أو فرقة من الخوارج .

سماحة المفتي : إنه لمن الصعب على الكاتب والقارىء معا إيجاد رؤية واضحة حول الفرق بين الأ باضية والخوارج ، ليس فقط هي وجهة النظر التاريخية ، بل إن الأ باضية والخوارج من تداخل التاريخ وتشابه السيرة والنزعة ، بل التراث والأدب المشترك وما شابه ، بحيث يكاد يكون من المستحيل وضع حدود فاصلة ، وتعريف حاسم يميز الأ باضية من الخوارج بوضوح ، وهل لكم أن تقوموا بهذه المهمة بصفتكم إماما ومرجعا في المذهب الأ باضي ، وتوضحوا للناس جوهر الفرق بين الأ باضية والخوارج ؟

فأجاب سماحته قائلا : « إن الخوارج طوائف عرفت بتشددها وغلوها في حين أن الأ باضية طائفة معتدلة ليس فيها إسراف في التشدد وليس في أمرها غلو. والخوارج كما عرف عنهم أنهم يحكمون على أهل التوحيد بأنهم مشركون ، وتترتب على ذلك استباحتهم لدمائهم وأموالهم وسبي ذراريهم .

بينما الأ باضية أعف الناس عن ذلك ، كما عرف من تاريخهم . وحسبنا أن نذكر قصة من قصص بعض أئمة الأ باضية ، وهو الإمام طالب الحق عبدالله بن يحيى الكندي رحمه الله تعالى ، فعندما خرج على عمال بنى أمية باليمن ، الذين كانوا يحكمون الناس بالعنف والجور ، و يأحذون أموالهم من غير حلها ، و يضعونها في غير محلها ، عندما خرج الإمام طالب الحق إلى اليمن واستولى على صنعاء عاصمة اليمن ، وكان العامل من قبل الدولة الأموية في اليمن هو القاسم بن عمر الثقفي ، الذي عرف بالشدة والصرامة والقسوة والجور والظلم وكان قد جبي كثيرا من الضرائب من أهل صنعاء ، فلم يكن من الإمام طالب الحق رحمه الله ، إلا أن وزع جميع ما وجده من الأموال في خزائن قاسم بن عمر الثقفي على أهل صنعاء من غير تفرقة بين أباضي وغيره ، ولم يستبح أن يأخذ لنفسه ، ولا أن يعطي أحدا من أصحابه الذين خرجوا معه مجاهدين ، شيئا من تلك الأموال مع شدة حاجتهم . فقد كانوا على ما وصفهم أبو حمزة ، نفر كثير منهم يتعاقبون على بعير واحد ، و يتعاورون لحافا واحدا عندما خرجوا من حضرموت إلى اليمن ، ولكنهم مع ذلك عفوا عن تلك الأموال ، وضربوا أروع الأمثال في الطهر والنزاهة وسمو النفس وعفتها ، وفي ذلك يقول الإمام نور الدين السالمي رحمه الله تعالى :

وطالب الحق بصنعاء حكما ... يجعلها وأهلها واحتشما
لم يأخذن عنه مضيق يومه ... شيئا لنفسه ولا لقومه
تعففا منهم ومن كمثلهم ... أكرم بهم من عصبة أكرم بهم
كانوا يموتون على ما أبصروا ... من الهدى ما بدلوا وغيروا

وهذا لاشك يلقى ضوءا لمن يود إبصار الحق ، واجتلاء الحقيقة ، والإنصات إلى الصواب فيما يتعلق بسلوك الأباضية وتصرفهم عبر التاريخ ، مما يدل على انتهاجهم دوما طريقا وسطا ونهجا مستقيما لا تفريط فيه ولا إفراط .

وأما الخوارج فإن من المعروف عنهم الإفراط في التشدد والإفراط في الغلو . فهم يحكمون على غيرهم من أهل التوحيد بالكفر ولا يجيزون مناكحة سواهم من أهل القبلة والتوحيد ولا يوارثونهم .

فالأباضية كما هو واضح ومعروف ، ــ لا يرون رأى الخوارج في هذه المسائل ــ إطلاقا حيث أن الأباضية يرون مناكحة أصحاب المذاهب الأخرى و يتوارثون معهم من دون تفرقة ولا تمييز . وإذا حدث أن مات أحد من أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى ، صلوا عليه ودفنوه في مقابرهم . فكل ذلك يوضح أنهم يبايعون الخوارج في الحكم على أهل التوحيد مما يدل أن الأباضية والخوارج ليسوا جماعة واحدة » .

سماحة المفتي : هل لكم أن تقولوا لنا ما هي فلسفة الأباضية ورأيهم في مسألة الخليفة والخلافة التي احتدمت يوما وسببت معظم الخلافات التي تولدت منها كثير من النظريات السياسية ذات الصبغة الدينية ؟ والمعروف عن الخوارج والأباضية أن لهم موقفا معينا في الخلافة .

فأجاب سماحته قائلا : « إن الأباضية يرون أن الحكم أمانة في الأعناق ، و يرون أيضا أن الناس أجل وأسمى وأشرف من أن يكونوا قطعانا من الأغنام يحكمون بالقهر والاستبداد وتتوارثهم قبيلة معينة ، فالناس قد خلقوا أحرارا ويجب أن يبقوا أحرارا ، والذي يبايعونه فلابد أن يستخلفوه من تلقاء أنفسهم راضين به و بسيرته ، ولا يرى الأباضية أى شرط من ناحية النسب ، وإنما الشرط الوحيد الذي

يشترطونه على الخليفة ، هو ـ بجانب الكفاءة السياسية ـ الورع ، والعلم ، والعفاف ، والطهر ، والنزاهة ، والإخلاص واذا توافرت هذه الشروط في الإنسان ، أيا كان ، أسود أو أبيض ، عربيا أو غير عربي ، فهو عندهم جدير بأن يبايع ، وهذا هو الرأى الذي كان عليه السلف الصالح . ولا أدل على ذلك من أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، قال عندما أراد أن يجعل الأمر بعده شورى بين ستة « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا ، لما خالجني فيه شك » مع أن سالما كان مولى لأ بي حذيفة ، ولكن عمر رضي الله عنه كان يميل إلى استخلافه أن لو كان حيا . وما الذي يجعل عمر يميل إلى استخلاف ولي من الموالي لولا علمه أن الإسلام جاء للمساواة بين طبقات الناس أجمعين ؟ وهذا المبدأ قد نطق به القرآن الكريم صريحا فقد قال « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فالتقوى ـ إذا ـ ميزان التفاضل بين الناس ، و بقدر ما يكون جديرا بأن يؤتمن على أمور الدين والدنيا .. ومن ضمن ذلك الاستخلاف ومنصب الخلافة في الإسلام من الخطورة بمكان ، لأن أخلاق الخليفة تنعكس على الهيئة الاجتماعية سيرا وسلوكا ، ولا ينبغى بل لا يجوز أن يستخلف إلا التقي الورع والقادر على تسيير أمور الدولة ، وتدبير السياسة والسهر على شئون الناس وجعل علاقاتهم مبنية على المودة والمؤاخاة قدر الامكان . ووضع ضوابط اجتماعية منبثقة من الشريعة الغراء .

سماحة المفتي : هل لكم أن تصوروا مدى التقارب بين المذهب الأ باضي والمذاهب الإسلامية الأخرى ؟

فأجاب قائلا « إن العلاقة بين الأ باضية و بين جميع المسلمين على اختلاف طوائفهم هي علاقة الأخ بالأخ . ولا أدل على ذلك من تلك الكلمات المأثورة التي قالها ذلك القائد الأ باضي أبو حمزة الشاري في المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فقد قال : الناس منا ونحن منهم : إلا ثلا ثا : مشركا بالله ، عابد وثن ، أو كافرا من أهل الكتاب ، أو متسلطا في الأ رض ، يحكم في رقاب الله بغير ما أنزل الله . وإذا كان هذا هو رأى ذلك الرجل في أقسى الأ وقات وأحرجها ، فكيف بالأ باضية في سائر عصورهم . فهذه هي العقيدة التي يعتقد بها كل أباضي ،

وإذا تتبع المنصف كتب الأباضية وجدها محشورة بآراء المسلمين من الأئمة الأربعة وغيرهم من علماء مذاهب الأربعة الذين جاءوا من بعد، مع التمحيص والبحث العميق واتباع ما يؤيده الدليل، ولو كان ذلك مخالفا للرأى المتبع في المذهب الأباضي، فكم من عالم من علماء الأباضية خالف — في مسألة من المسائل — أهل مذهب، لأنه وجد الصواب في غير ماذهب إليه علماء الأباضية، وهكذا، فالعاقل يعتبر الدليل الصحيح وهو البرهان وهو المستحق للقبول والاتباع. ولقد روى عن أحد أقطاب المذهب الأباضي، وهو الإمام يوسف بن إبراهيم الوارجلاني أنه لما حج وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم، قال مشيرا إلى قبره عليه الصلاة والسلام، لا تقليد إلا لصاحب هذا القبر، وأما الصحابة فهم أولى بالاتباع لعهدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم. وأما التابعون فهم رجال ونحن رجال. و يقول الإمام نور الدين السالمي رحمه الله في هذا المعنى.

فإنني أقفو الدليل فاعلما ... لم أعتمد على مقال العلماء
فالعلماء استخرجوا ما استخرجوا ... من الدليل وعليه عرجوا
فهم رجال وسواهم رجل ... والحق ممن جاء حتما يقبل

فقال أيضا :

فنحن حيث أمر القرآن ... لا حيث ما قال لنا الفلان

وقال أيضا :

حسبك أن تتبع المختارا ... وأن يقولوا خالف الآثار

وهكذا نجد أئمة الأباضية يتتبعون الصحيح من الدليل، و يتقيدون به، أي بالأدلة، ولا يتقيدون بآراء الأشخاص. ولقد سمعت من أحد العلماء الأباضية في الوقت الحاضر، وهو الشيخ بيوض بن عمر يثني ثناء عظيما على أحد علماء الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وهو الشيخ عمر الفلاني، ذلك لأن العالم الأباضي والشيخ بيوض سمع الشيخ عمر الفلاني يلقي درسا، فتوجه إليه سائل بسؤال قائلا : يأيها الشيخ، قولك هذا على مذهب من ؟ فأجابه الشيخ على مذهب

هذا ؟ يشير إلى قبره عليه وابل الرحمة . وكان الشيخ بيوض يتحدث بهذه القصة وملؤه الحبور والسرور والغبطة .

بأن يوجد في علماء المسلمين من يتقيد بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم غير خاضع لاجتهادات العلماء . ولما قالوا ، لأن كل أحد في كلامه مقبول ومردود إلا الذي عصمه الله ، و بين سعته بقوله « وما ينطق عن الهوي انإهوإلا وحي يوحى » .

سماحة المفتي : ما قول الأباضية في الاجتهاد ؟ أهومازال معمولا به ومسموحا بممارسته أو قفل بابه ؟

فأجاب قائلا :

« الأباضية يرون أن باب الاجتهاد مفتوح ، وكل من لديه من الحصيلة العلمية مايؤهله للاجتهاد ، يجب عليه أن يجتهد ولا يباح له تقليد الآخرين . وهذا هوما يفهم من منهج السلف الصالح . فلقد روى عن الأئمة أن كل واحد منهم كان يقول « إذا صح الحديث فهومذهبي » ، فيقول إن جاء الحديث ، وخالف مذهبي الحديث فليرم بمذهبي عرض الحائط ، وذلك ما كان عليه السلف . ولم يأت أى دليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن إجماع الأمة ما يدل ، أو دل ، على أن باب الاجتهاد يفتح إلى نهاية قرن معين ، أو إلى نهاية حقبة معينة . وإنما جاءت الأدلة كلها مطالبة الإنسان أن يستخدم فكره ووعيه وعقله وأن يتقيد بما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب الله يقول « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » وفي تقديم الجار والمجرور في قوله « في رسول الله » ما يدل على أن الأسوة لا تكون في غير شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنحن يجب علينا ألا نتأسى بأى أحد إن كان رأيه أو عمله مخالفا لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ، و يدل على ذلك تقدير الأسلوب في قول الله تبارك وتعالى « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » فمن حيث أن التأسي بإبراهيم ، ومن كان معه من المؤمنين ، كان في شيء معين ولم يكن التأسي بهم مطلقا ، أخر الجار والمجرور في قوله « ابراهيم والذين معه » والأدلة التي تدل على وجوب التقيد بالكتاب والسنة أكثر من أن

تحصى ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول « عليكم بسنتى ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » و يقول عليه أفضل الصلاة والسلام « تركت فيكم ما إن تمسكتم به ، لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتى » . و يقول عليه الصلاة والسلام « أنه ستكون من بعدي فتن كقطع الليل المظلم ، قيل له ، وما المخلص لها يا رسول الله ؟ قال كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، والحكم ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدي من غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ معه الأهواء ولايشبع منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى الصراط المستقيم .

سماحة المفتى : هناك من يروج بأن « الفرق » قد كانت تصنع أحاديث على لسان رسول الله لتأييد آرائها ، وما هو تعليق الأ باضية على ذلك باعتبارها من الفرق ؟

هذا من التقول بدون علم ، والله سبحانه وتعالى حذر من ذلك ، فقال عز وجل « ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وهؤلاء الذين يقولون مثل هذا الكلام . لايتثبتون فيما يقولون ، وإنما يغلى الحقد في صدورهم فيفرزون و يزيدون مثل هذه المقالات التي لا تقوم على أساس ثابت وإنما هي نتيجة الانفعال وهيجان العاطفة . ولقد تحدث كثير من الكاتبين الذين كانوا من الصرامة ومن الشدة بحيث كانوا يحكمون على من خالفهم بأحكام قاسية كابن تيمية ، مثلا . فان ابن تيمية على الرغم من عده الأ باضية من الخوارج وتشدده البالغ بالذين يسميهم بالخوارج ، فإنه قد قال بأن الخوارج قد عرفوا بالصدق ، وعرفوا بالعبادة . ونحن لا نوافق ابن تيمية على إدراجه الأ باضية في الخوارج ، ولكننا نوافقه على أن هذه الطائفة التي سميت بالأ باضية ، قد عرفت بالأمانة ، وعرفت بالنزاهة كما نوافق أيضا على أن جميع طوائف الخوارج غير متهمة بالكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا على غيره من الناس ، لأنهم يعتقدون أن الكبيرة شرك تخرج صاحبها من الإسلام . والكذب من الكبائر . وإذا كان

الكذب عندهم شركا يخرج صاحبه من الإسلام فكيف يتجرأون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن ثم نجد أئمة الحديث كالعلامة ابن حجر العسقلاني يقول : « أصدق الناس لهجة الخوارج » .

اذا ، وبما أن الناس مصرون على وصف الأ باضية «بالخوارج» وإلحاقهم بهم ، فليس لهم إلا أن يقروا بأن الأ باضية ليسوا ممن يضعون الحديث .

سماحة المفتي : ما هو رأى الأ باضية في كتاب المقالات الإسلاميين وخاصة فيما يخص الأ باضية ؟

فأجاب قائلا : إن التاريخ الإسلامي قد تعرض له المغرضون والعابثون ، وألصقوا به أشياء هي بعيدة عنه ، لذلك وجب على من يدرس التاريخ الإسلامي أن يدرسه دراسة تأمل وتمحيص ، وألا يقبل ــ مسلما ــ صحة كل مانسب إلى هذه الطائفة أو تلك من الطوائف الإسلامية ، وخصوصا إذا كان بوسعه توفير المراجع التي تبين له آراء تلك الطوائف ومعتقداتها ، والمراجع المقصودة طبعا هي تلك التي تعتمد لدى تلك الطوائف ، لئلا يقع في الخطأ ، مع إمكان الوصول إلى الصواب . ومن المؤسف جدا أن نجد كتابا معاصرين مع إمكان توصلهم إلى المراجع الأ باضية أو مراجع الطوائف المعاصرة الأخرى ، ولكننا ــ بدلا عن ذلك ــ نراهم عندما يكتبون . ير بطون أنفسهم ، و يتقيدون بكتب كتبت منذ قرون كتبها قوم لم يتقيدوا بالواقع ، كابن حزم والبغدادي والأشعري ، مع أن المفترض من الكاتب المسلم ، بل الواجب عليه هو التمحيص والتدقيق ليصل إلى الحقيقة مادام يستطيع الوصول إليها والسؤال الأخير، سماحة المفتي : الديكم كلمة تودون إيصالها إلى إخوانكم المسلمين ؟

فأجاب نعم : إن سمح لى المسلمون بتقديم نصيحة إليهم فاني أنصحهم بما نصحهم به قبلي أنصح الناصحين وهو : « ان يعتصموا بحبل الله جميعا » أي أن يعتصموا بالقرآن والسنة وألا يتراشقوا بالتهم ، وألا يتنابزوا بالألقاب ، وألا يسيء بعضهم الظن ببعض ، وأن يحرصوا على أن يكونوا إخوانا ، فالله تعالى يقول : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » و يقول أيضا « وان هذه أمتكم أمة

واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » و يقول أيضا « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » بعد أن قال « واعتصموا بحبل الله جميعا » وقد أمرنا سبحانه وتعالى أن نعتصم بحبل الله وحذرنا تعالى أن نقع فيما وقع فيه أهل الكتاب حيث قال سبحانه وتعالى « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .. الآية فعلينا أن نعتصم بحبل ربنا وأن نتمسك بكتابه وأن نعض بالنواجذ على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن نحرص على التماس العذر لبعضنا بعضا ، مادام هناك مجال للعذر . وانني أدعو المسلمين جميعا بأن يدرسوا القرآن والسنة النبوية بتجرد ، و بإمعان من غير تحيز إلى فكرة معينة ، فإن القرآن والسنة يجب أن يكونا القاضيين على مافي أدمغتنا ، وألا نجعل ما في أدمغتنا قاضيا على القرآن والسنة . والله تعالى ولى التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

ان كثيرا من الناس يحملون انطباعا عن الفرق مؤداه أنهم ـــ الفرق ـــ يسيئون إلى الصحابة . ولقد أشيع عن الشيعة أنهم يسبون بعض الصحابة وتجد العوام يرددون هذا الكلام بدون وعي . وأنصاف المتعلمين لا يتورعون عن ترو يج كلام كهذا مع أن الأغلبية المطلقة لم تعش مع الشيعة ، ولم تسمع عنهم كلمة واحدة تخص شأن الصحابة ذما أو مدحا . غير أن الانسياق مع « سمعت » أو « انهم يقولون كذا » يجر معظم الناس إلى التقول أو ترديد ما يقوله المناوئون لطائفة غير أنك عندما تتحدى هؤلاء ، وتطلب منهم أن يحلفوا بأنهم سمعوا بآذانهم ما يرددونه ، يأخذهم الارتباك ، فيقولون انهم ما سمعوا ، بيد أن كل الناس يعرفون أن هذه الطائفة تقول كذا وكذا . فقل لمحدثك هذا هب أن تلك الطائفة تقول كذا . وهل أنت شاهد على ذلك ، يقول لك ، لا ! فقل لمحدثك . هل تتفهم الدوافع النفسية أو الاجتماعية ، أو السياسية ، التي دفعتهم إلى قول ما قالوه ؟ سيشرع يفلسف الأمور ، و يسفسطها بغية التمويه والتعميم . يقال عن الخوارج ـــ والأ باضية معا ـــ أنهم يكفرون بعض الصحابة ، ولا يرضون عنهم وبما أن الخوارج ـــ كخوارج ـــ قد انقرضوا ، وبما أن الناس ينظرون إلى الأ باضية نظرتهم إلى الخوارج ـــ مع تعديل

طفيف ــ لذا أصبح بعض الكتاب يصفون الأ باضية بالأ وصاف التي كانوا يصفون بها الخوارج .

غير أن الأ باضية بما أنها أنكرت وتنكر إلحاقها وإدراجها في طابور الخوارج فإنها تنكر أيضا ما ينسب إليها من أقوال الخوارج وانها ليست مسئولة عن تصرفات الغلاة من الخوارج ، بالاضافة إلى إنكارها ما ينسب إليها الناس من أقوال تمس أشخاص الصحابة أو تحط من شأنهم ، كبغضهم ولعنهم ، وما شاكل هذه الأمور ، ولقد ارتأينا أن في هذا الباب « الأ باضية تقول عن نفسها » مقالا لكاتب أباضي ، يرد فيه زعم زاعم أن الأ باضية يكفرون علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، والحق انه رأى قديم ، ورائج عن الخوارج ، فلنسمع رأى الأ باضية فيه .

لقد كتب الأستاذ/أحمد سعود السيابي مقالا تحت عنوان « قراءة صحيحة في الفكر الأ باضي (١) والرد على اتهامات كاذبة » قائلا « هذا المفهوم الخاطىء لابد من تصحيحه ، .. كتب الأ باضية حافلة بحب الصحابة ، وذكر فضائلهم .

الأ باضية براء من شتم أهل الاستقامة ، لا يجوز لمؤمن أن يكفر صهر النبي عليه السلام .. وفد الأ باضية طالب منع لعن « علي بن أبي طالب » وبعد هذا الاستعراض العام كتب قائلا : « لقد قرأنا الكثير مما كتبه الكاتبون ، وسمعنا كثيرا مما تفوه به المتقولون ، أن الأ باضية يكفرون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، أو يشتمون علي بن أبي طالب ، و ، و ، و . وغيرها من الكلمات التي يظهر تحليلها التلفيق والتزوير ، خالية من الحقيقة ومجانبة للصواب . وهي تكون طابورا طويلا ، هؤلاء الذين كتبوا هذه الكلمات وسطروا هذه العبارات ــ من المؤكد ــ أنهم لم يقرأوا ولا كتابا واحدا من كتب الأ باضية الذين تنسب إليهم هذه التهمة الشنيعة ، ولو أنهم قرأوا كتب الأ باضية لوجدوها مملوءة بحب الصحابة رضوان الله عليهم ، وذكر فضائلهم العظيمة وتدوين مآثرهم مما لا يوجد في كتب غيرهم ، يقول أبو العباس الدرجيني ــ وهو من كبار علماء الأ باضية ــ في كتابه « الطبقات » بعد أن ذكر فضائل الصحابة والأحاديث التي وردت في فضائلهم ، قال ، ثبت هذا ، فاعلم أن من الصحابة من لم يخالفنا في تقدمهم مخالف ، فقد امتلأت بذكر فضائلهم

---

(١) في مقال صادر في جريدة « عمان » اليومية بتاريخ .

الصحف ومنهم من لم ينل حظا من الإنصاف عند أهل الخلاف وهم عندنا من جملة الأكابر والأسلاف ، والقول بأن الأباضية يكفرون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قول لايمت إلى الحقيقة بصلة ولا علاقة له بالصحة مطلقا ، فهذا الشيخ سعيد التغاريني يقول في كتابه « المسلك المحمود » ردا على مصطفى بن كامل الطرابلسي ، والعجب كل العجب مما نسبه ابن كامل مصطفى البنا تجاهلا وظلما وتسلطا وشتما ، حتى أطال سنان لسانه ، وقال كفروا عليا ــ بزوره و بهتانه ــ مع اعتقادنا أن الصحابة رضي الله عنهم أنهم عدول أتقياء بررة أصفياء ، قد اختارهم الله من بين الأنام لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وقال ، وكيف يجوز لمن يؤمن بالحي الذي لا ينام ، أن يكفر صهر نبيه عليه السلام الذي لم يسجد قط للأصنام ؟ إلى أن قال مع أن كتبنا ــ ولله الحمد ــ طافحة بالرواية عنه ، و بالثناء عليه وقال الشيخ أبو اسحاق إبراهيم أطفيش ، دفين القاهرة رحمه الله ، في رده على الاستاذ/محمد عقيل العلوي ، وأما ما زعمت من شتم أهل الاستقامة ، و يعني الأباضية ، لأبي الحسن وأبنائه ، فمحض اختلاق ، من هذا يتبين للقارىء أن الأباضية براء مما نسب إليهم من شتم علي بن أبي طالب ، وسلف الأباضية ــ المحكمة أو أهل النهروان ــ هم الذين وقفوا مع الخليفة علي بن أبي طالب في مواقف القتال ، وثبتوا بجانبه في أماكن النزال ، أمثال زيد بن حصن الطائي وعبدالله بن وهب الراسبي وحرقوص بن زهير السعدي ومرداس بن حيدره وعروة بن أدرية وغيرهم وغيرهم ممن يطول تعدادهم رضي الله عنهم جميعا ، حيث كانوا معه في معركة الجمل التي دارت رحاها بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وطلحة والزبير . وكانوا معه في معركة صفين التي اشتعل أوارها بين الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . وقد تحقق له النصر بشبا سيوفهم ، وجرت له الغلبة بنصال رماحهم . و بعد أن ظهر ما كان سراً في ضمير القدر ، وحدث ما حدث في أمر التحكيم وانسحاب ذوى الاخلاص ــ المحكمة ــ من جيش الإمام علي دارت بينه و بينهم معركة النهروان التي نسبوا اليها ، فقد الامام أولئك الرجال المخلصين الذين طالما اعتمد عليهم في حروبه ، ولم تعد أموره كما كانت ، وانما قضي بقية أيام حياته في تعب من أصحابه الذين تخلفوا عن الجهاد معه ، وركنوا الى الخمول والدعة ، وأخذوا يتسللون عنه لواذا ، تصوره لنا تلك الحالة المؤلمة خطبه البليغة الرنانة .

والأ باضية وان كانوا يرون التحكيم خطأ ، ويخطئون عليا في قبوله تحكيم الحكمين لأدلة ثابتة عندهم ليس هنا محل بسطها ، فإن عدم الرضى على شخص ما ، أو الترضي عنه ، لايعني تكفيره أو شتمه ، على أن الأ باضية لا منزلة للأشخاص عندهم إلا على ضوء الحق والتقوى والاستقامة في الدين من منطلق قول الله عز وجل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ، لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وميزة الإسلام وحيويته تتجليان في ثوب المساواة الذي كساه أفراد مجتمعه ــ لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأ بيض على أسود إلا بالتقوى ــ والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأهل بيته ، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني أنتم بأنسابكم ، واعتقاد الصواب وعدم الخطأ بشخص من الأشخاص ما عدا الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو من الغلو في الدين ، وقد نهى الإسلام عنه ، قال الشيخ أبو اسحاق إبراهيم أطفيش « والأصحاب يتحرون تطبيق حكمي الولاية والبراءة لا تشهيا ، وهما ينطبقان على كل فرد مهما عظمت منزلته ، ما لم يكن من المعصومين ولا معصوم إلا النبي أو الرسول ، أما الصحابة فلهم مرتبة عظيمة وهي مزية الصحبة ، والذب عن أفضل الخلق واراقة دمائهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، فنختار الكف عن تلك الحوادث المشئومة » وقال في نفس الكتاب « وأيضا فلا غبار على من صرح بخطأ المخطىء منهم بدون الشتم والثلب بعد التثبت من ذلك والتبين ، وان أمسك لعموم الأحاديث الواردة فيهم وترك الأمر إلى الله فهو محسن ، والقول بخطأ التحكيم بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ليس هو قول الأ باضية وحدهم بل هو قول الحسن البصري ، ومالك بن أنس والمنذر بن الجارود وغيرهم . ولسنا هنا بصدد الحديث عن قضية التحكيم وما جرى حولها من نقاش وجدال ، فإن الحديث حول هذا الموضوع ذو شعب متعددة ، وجوانب متفرعة ، و يتجلى إنصاف الأ باضية واضحا للإمام علي بن أبي طالب عندما ولى الخلافة الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز حيث أرسل إليه الأ باضية وفدا على مستوى رفيع من العلم والفضل والصلاح وكان من أعضاء الوفد جعفر بن السماك العبدي البصري ، وأبو الحر علي بن الحصين العنبري والحتات بن كاتب التميمي العماني ،

والحباب بن كليب البصري ، وأبو سفيان قنبر البصري ، وسالم بن ذكوان الهلالي ، وأبو حمزة الشاري ، والمختار بن عوف السليمي الصاني القائد الإسلامي الشهير وكان الوفد يحمل معه قائمة تتضمن طلبات تعود بالمصلحة العامة على المجتمع المسلم ، وكان البند الأول في تلك القائمة الإصلاحية يطلبون فيه من الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى أن يمنع لعن الإمام علي بن أبي طالب . وقالوا له إن المسلمين يلعنون عليا على المنابر ، فأبدل اللعن بقوله تعالى « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » في الوقت الذي كان فيه غيرهم يشكو إلى الخليفة أن أرضا أخذت منه ، أو جارية اغتصبت منه ، أو قريبا له قد قتل بدون جريرة ، مع أن الأباضية لقوا من الاضطهاد ما لم يلق غيرهم ، ولكنهم جعلوا ذلك لوجه الله واحتسبوه في سبيل الله ، وتلقوا ضربات الظلم التي كالها عليهم عمال بني أمية بصبر وصمود فائقين . وكان معاوية قد أمر بلعن علي بن أبي طالب في جميع الأمصار ، واتخذه الأمويون من بعده سنة ، قال الشيخ السعودي في كتابه (صروح الذهب) وارتقى بهم ، — أي قوم معاوية — الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير و يهلك عليها الكبير « واستمروا في لعنه حتى عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز حيث منع لعن علي استجابة لطلب الوفد الأباضي » وهي لعمري منقبة إنسانية عظمية ، كما أنه موقف تاريخي خالد . وتشمل القائمة أيضا على بنود عديدة تهدف إلى إصلاح الأوضاع ونشر العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال لهم الخليفة عليّ أن أحيى كلّ يوم سنة ، وأميت كل يوم بدعة ، وكان عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز موافقا لهم في آرائهم السديدة حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورد المظالم إلى أهلها ، وتوفي عبدالملك بن عمر رحمه الله تعالى ، والوفد لا يزال مقيما عند الخليفة . وقد بعث إليهم الخليفة وقال لهم جهزوا صاحبكم ، فتولوا تجهيزه والصلاة عليه ، وصلّى عليه أبو حمزة الشاري » .

وان تعجب فعجب أمر هؤلاء المؤرخين الذين سيطر على أسلات أقلامهم الحق المذهبي أو السياسي ، حيث لم يذكروا هذه الروح الإنسانية الراقية التي ظهرت من الأباضية ، وإنما كتبوا عبارة قصيرة وملتوية حيث قالوا «وارسل إليه الخوارج وفدا» ولم يوضحوا من هم هؤلاء الخوارج ؟ على فرض أن الأباضية من الخوارج حسب زعمهم ، ومن هم أعضاء هذا الوفد ؟ وماذا جرى بينهم و بين الخليفة من حديث ؟ وهل كان مسيرهم إلى الخليفة لمجرد التسليم عليه وتهنئته بالخلافة ؟ أو لتذكيره بأمور المسلمين ؟ كل هذا لا تجده في كتب مخالفي الأباضية .

ودعوتنا إلى الشباب المثقف أن يمعنوا النظر ويجيلوا الفكر فيما دوّن من قضايا تاريخية ، لا سيما تلك التي تتعلق بالفرق الإسلامية فان الأهواء لعبت دورها في توجيه الأقلام ، وأنا على يقين أن كثيرا من الباحثين والمفكرين المتحررين من قيود التقليد أضحوا يدركون هذه الحقيقة وصاروا يعرفون مدى تغلغل الأهواء في أصحابها . وان أقلام المؤرخين صارت أبواق دعاية للسياسة الظالمة التي أعقبت فجر الإسلام ، ونسأل الله أن يوفق الجميع إلى خير القول وصالح العمل .

وهو أبو الشعثاء(١) جابر بن زيد الأزدي الجرفي ، البدوي مسكنا ، والعماني أصلا ، والأزدي نسبا . وقبيلة .

يقول المؤرخون ان جابر بن زيد ولد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب ، غير أنهم لم يحددوا تاريخا معينا لولادته ، ورغم ذلك فإنهم كلهم يشيرون إلى أن تاريخ ولادته يتراوح مابين ١٨ ــ ٢٢ هـ . وفي هذا العهد المبكر من التاريخ الإسلامي ولد جابر ، وتلقى مبادىء العلوم الدينية في بلاده : عمان ، غير أنه لم يكتف بما نال ، وهاجر نحو المركز العلمي للعالم الاسلامي عندئذ ، وهذا المركز هو مدينة البصرة التي غدت فيما بعد ملتقى الفكر الإسلامي وعاصمة العلم حيث اتخذها مسكنا كثير من الصحابة الكرام بعد مفارقتهم منازل الوحي ــ مكة المكرمة والمدينة المنورة ــ واستوطنوا البصرة ، كما استوطنها كثير من التابعين الكرام الذين تتلمذوا على أيدي الصحابة مباشرة . ومما ساعد مدينة البصرة على أن تصبح أكبر مركز للنشاط العلمي والفكري الإسلاميين كونها «بندرا» تفد إليها الأجناس المختلفة بالأغراض المتباينة ، فبدأ الفكر العربي الإسلامي يعالج فيها معالجة علمية ، وتفاعلت فيها العقول الاعجمية والعربية باللغة العربية خير تفاعل ، ونتج عنه هذا النتاج الفكري العقلي الرائع الجم . وكان ممن وفد إليها جابر . وكان من حسن حظه ان التقى بقوم هم الينابيع الصافية للعلوم الإسلامية أمثال : عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق . وحبر الأمة ، عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص(٥). وكان يقول : أدركت سبعين من أهل بدر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، حويت ماعندهم إلا البحر : يعني عبدالله بن عباس . و يقول

---

(١) الشعثاء بنته ، وقبرها معروف في بلدة «الفرق» من مقاطعات نزوى في عمان ــ انظر «العقود الفضية في الاصول الاباضية» ص : ٢٩٤ نشأة الحركة الاباضية ص : ٨٦ ، عمان في فجر الاسلام ، ص : ٥٣ . مختصر تاريخ الاباضية ، ص : ٥٤ . ازالة الوعثاء عن اتباع أبي الشعثاء . ص : ١٤ .

الحارثي موضحا : ان ابن عباس ليس من أهل بدر، فالاستثناء[1] منقطع ، غير ان جابرا فيما يبدو كان أكثر ملازمة لعبدالله بن عباس عنه من أي استاذ آخر من أساتذته . والسبب في ذلك إعجابه وتقديره المطلقين بعلم ابن عباس ، فلذا كان يطلق عليه اسم «البحر» .

فعلى الرغم من عدم وجود معلومات عن كيفية مجيء جابر إلى البصرة فإننا نستطيع التصور بأنه أتاها وهو فتى يافع لا يحدوه إليها سوى الرغبة في العلم ، ونفهم من النصوص التاريخية أن جابرا فرض على نفسه أسلوبا متعبا قاسيا لكسب العلم بعد قدومه إلى البصرة ، مما أتاح له فرصة التضلع في العلوم العربية الإسلامية والاحاطة بها ، غير أنه لم يتخلّ عن ذلك الأسلوب الذي رسمه لنفسه أيام التلمذة والذي هيأ له فرصة التفوق . لقد كان متقشفا وزاهدا ، حتى عندما غدا مفتيا وعالما يشار إليه بالبنان ، وكان يقول : سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن ، سألت الله عن زوجة مؤمنة وراحلة صالحة ، ورزقا كفافا يوما بيوم ، و يوم بيوم عبارة تشهد بأنه ما ابتغى كنزا للاكتناز ، ولا ثروة يباهي بها الأقران ، ولا غنى يستلذ بها طيب الحياة . وكان يقول لأصحابه : ليس منكم رجل أغنى منّي ، ليس عندي درهم ، وليس عليّ دين . والحق أن جابر بن زيد رجل يشهد له أهل السنة والأ باضية حقا بالثقة . و يبدو أن عبدالله بن عباس نفسه كان شديد الثقة بجابر بدرجة أنه كان يقول : لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأ وسعهم علما عما في كتاب الله ، وتقول النصوص التاريخية ان ابن عباس كان يحيل سائليه إلى تلميذه جابر بن زيد ثقة منه به ، وكان يقول : اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه . وعندما كان أهل البصرة يسألونه في مسألة من المسائل ، كان يجيبهم متعجبا : كيف

---

(١) «العقود الفضية» ص : ٩٤ ، «مختصر تاريخ الاباضية» ص : ٢٤ ، «نشأة الحركة الأ باضية» ص : ٨٧ .

تسألونني وفيكم جابر بن زيد . وقال عنه قتادة بن دعامة السدوس : ا ـــ أي جابر(١) عالم العرب ، وأعلم أهل الأرض ، وهذه المكانة التي بلغها تدل على أنه كان قد كسب علما واسعا جعل ابن عباس يقّر بأن جابر بن زيد يضارعه في المعرفة ، مما أهله تبوأ مكان مرموق و بارز بين كبار العلماء من التابعين وأصبح علما من أعلام الحديث والتفسير والعلوم الدينية الأخرى . و يقال ان جابر بن زيد كان يدون الأحاديث التي كان يرو يها من اساتذته ، و يدوّن معها ملاحظاته وفتاو يه في ديوان كبير جدّا له . وان هذا السفر كان من الضخامة بحيث يعجز البعير عن حمله ، وانه كان يقع في عشرة أجزاء كبيرة ، و يظهر لي أنه لم يكن كتاب بمعناه المنهجي الدقيق ، وإنما كان بمثابة « موسوعة » فيها مختلف العلوم والمعارف في مختلف الفنون . و يقال ان نسخة من هذا الكتاب كانت موجودة في مكتبات بغداد الكبرى في عهد الخليفة هارون الرشيد . و يبدو أن هذا الكتاب كان قد وضعه جابر في أوائل الدولة الأموية ، غير أنه لم يكن كتابا مسموح التداول كأي كتاب آخر ، وقبل ان عبدالملك بن مروان و بنيه استولوا(١) على ديوانه وحرّموا دراسته ونشره على الناس . وروى ان العباسيين أيضا فيما بعد حرّموا على الناس استنساخه . ووضعه في مكتبة دار الحكمة في بغداد ، وكانوا يعلمون انه من دفاتر المسلمين . و يبدو أن هذا الكتاب لم يتناول في أوساط الدارسين على نطاق أوسع ، و يروي أن أحد علماء الأباضية من جبل نفوسة في ليبيا «النفاث فرج بن نصر» وهو مؤسس الفرقة النفاثية الأباضية ، استطاع أن يحصل على نسخة كاملة من الديوان هذا ، وأتى بها إلى جبل نفوسة ، ولما كان النفاث عدوّا للإمام الرستمي في تاهرت ، ولعامله في جبل نفوسة ، فقد دمر المخطوطة حتى لا يستطيع مناوئوه الحصول عليها أو حتى استنساخها(٢)

---

(١) حاشية الكتاب «إزالة الوعثاء عن اتباع أبي الشعثاء» ص : ١٦ تحقيق الدكتورة السيدة إسماعيل كاشف . طبعة وزارة التراث القومي والثقافة . عمان .

(٢) «نشأة الحركة الأباضية» ، ص : ٧٩ ، قارن بالأباضية في موكب التاريخ وما جاء فيهما من مراجع .

ويبدو أن جابر بن زيد قد أبعد من البصرة إلى عمان مرتين بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي ، وذلك عندما ثار العمانيون في عمان ضد الحكم الأموي . ولما كان جابر أزديا من حيث الانتماء القبلي . والأزد كان لها وجود بارز في البصرة ، لذا خاف الحجاج من ثوران الأزديين في البصرة مناصرة لاخوانهم الثائرين في بلادهم . ولا شك أن هذا الابعاد السياسي كان عاملا مهما لانتشار الأباضية «مذهب جابر» في عمان حيث تمكن من شرح معتقداته لأهله في بلاده الأصلية فأصبحت قاعدة الأباضية فيما بعد .

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي(١)

هو ثالث الأركان ، وحامل لواء العلم والإمامة في المذهب الأباضي للمغرب ، وحضرموت ، وعمان(٢) .

أقام أبو عبيدة في البصرة شأن الأساتذة الأجلاء من معاصريه ، وتلقى العلم من جابر بن زيد .

ولعله اتصل بالفكر الأباضي عن طريق جابر بن زيد . و يعتبره الأباضيون الركن الثالث في المذهب الأباضي بعد ابن عباس ، وجابر بن زيد ، ورغم تتلمذه على يد جابر إلا أنه أدرك أساتذة جابر نفسه وتلقى عنهم بعضا من علمه . ومن بين هؤلاء الاساتذة بعض من الصحابة مثل أنس بن مالك ، أبي هريرة ، عبدالله بن عباس ، وعائشة أم المؤمنين ، وغيرهم . والنص التالي يدلّ على تلقيه العلم على أيدي الصحابة حيث يروي أنه كان يقول : من لم يكن له استاذ من الصحابة ، فليس هو على شيء من الدين ، وقد منّ الله علينا بعبدالله بن عباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن سلام وهم الراسخون في العلم

---

(١) وهو تميمي بالولاء ولكنه كان افريقي الأصل أسود البشرة ، وكان فقافا .

(٢) الحارثي في «العقود الفضية» ص : ١٣٩ .

وعلى أثرها اقتفينا(١) و بقولهم اقتدينا ، وعلى سيرتهم اعتمدنا ، وعلى منهاجهم سلكنا .

يجمع الأباضيون على أن مذهبهم قد نضج على يد أبي عبيدة وفضلا عن كونه ثالثة الاثافي في المذهب ، فان حنكته السياسية وقدرته التنظيمية جعلت الفضل الأكبر في تطوّر الحركة الأباضية يرجع اليه . لقد كان ماهرا في إعداد الدعاة وتشكيلهم ثم بعثهم إلى شتى أنحاء العالم الإسلامي .

ولعل تغير المناخ السياسي بعد موت الحجاج عام ٩٥ هـ وتبوأ سليمان بن عبدالملك عام ٩٦ هـ لى العرش في دمشق عامل سهل لأبي عبيدة المضى قدما في تنظيم صفوف الأباضية منتهزا تلك الفرصة وأصبح يعمل في نشر العقيدة الأباضية وشرحها في شيء من الحرية . ذلك لأن الخليفة الجديد «سليمان بن عبدالملك» كانت تربطه بالمهالبة ــ وهم أزديون ــ علاقة جيدة . والأزديون كانوا على صلة وثيقة بالأباضية ، وكان معظمهم قد انضم إلى هذا المذهب ابان إمامة جابر له ، وهو أزدي . و يذكر التاريخ أن كثيرا من زعماء المهالبة قد اقتنعوا بالمذهب الأباضي واعتنقوه . اذا فالنفوذ المهلبي في العراق والخراسان هيأ جوّا صالحا للأباضية ليلتقطوا انفاسهم بعد ان ضيق عليهم الحجاج زمنا طويلا ويمارسوا نشاطهم السياسي والديني بحرية أكبر. وعند موت سليمان بن عبدالملك انتقلت الخلافة الى الخليفة عمر بن عبدالعزيز، غير ان تغير القيادة لم يؤد إلى تغير الظروف السياسية أباضيا ، فعلى الرغم من أن الخليفة الجديد ، عمر بن عبد العزيز ، قد أقدم على عزل الوالي الأزدي أي يزيد بن المهلّب المتعاطف مع الأباضية ، وزجّه في السجن وايقافه فيه طوال حكم عمر ، فإن العلاقة بين الخليفة من جهة ، والاباضيين من جهة أخرى لم تتوفتر . ذلك لأن الخليفة الجديد قد انتهج نهجا أكثر لطفا ، وأقل جفاء ، نحو حركات المعارضة ــ الأباضية من بينها ــ لتصفية الخلافات بغية حقن دماء المسلمين وانهاء الحروب

---

(١) المصدر السابق ، ص : ١٤٠ .

الداخلية في الدولة الإسلامية ، و يظهر ان الأ باضيين ما كانوا أقل ميلا منه بتنقية الأجواء وايجاد صيغة ما وأرضية مشتركة من التفاهم . ولذلك بادروا بارسال وفد الى الخليفة الجديد لشرح وجهات نظرهم له لما رأوا منه استعدادا لتفهم مواقف الآخرين . وكان الوفد الأ باضي تحت رئاسة جعفر بن السماك وهو واحد من علماء الأ باضية الاجلاء في البصرة آنئذ . وتقول المصادر الأ باضية ان الوفد الاباضي استطاع التأثير على عمر بن عبدالعزيز .

وعلى كل حال فان أباعبيدة استطاع أن يستغل هذا الهدوء السياسي في الدولة الإسلامية خلال حكم الخليفة سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز للعمل جاهدا مع الشيوخ الأ باضيين على إعادة تنظيم حركتهم وانجاحها والوصول إلى الهدف الأسمى وهو تغيير النظام واستبدال آخر به يلتزم بسيرة الخليفتين الأ ولين : أبي بكر وعمر ، واللّذين يعتبرهما الأ باضيون النموذج المطلوب والمثال الحيّ للإسلام الصحيح .

فمن هنا شرع أبو عبيدة يمارس العمل التنظيمي على ثلاث مستويات «في سرية مطلقة» .

١ — لقاءات عامة يباح لحضورها كل المقتنعين بالمذهب والمستجيبين للدعوة . غير أنه مزيدا من الحيطة كانت الجلسات تعقد في أماكن سرية وغير ملفتة للنظر تجنبا من مداهمة رجال الشرطة إياهم . ولم تكن أمور ذات شأن تقرر في مثل هذه الجلسات العامة بل كان الأعضاء يجتمعون و يناقشون الشئون الدينية و يلقى المؤهلون منهم دروسا في الوعظ والارشاد ومسائل متفرقة في العقيدة وما يتصل بها ، وأمورا تتعلق بالمذهب الأ باضي . ومع كونها لقاءات عامة ومفتوحة فانهم كانوا يضعون حراسا منهم لمراقبة المنافذ المؤدية إلى مكان الاجتماع كي لا يداهمهم رجال الشرطة على حين غرّة .

٢ — لقاءات خاصة ، وهذه اللقاءات أهم وأخطر اللقاءات كلها ولا يحضرها إلا الخواصّ من الزعماء والقادة الفكريين للحركة ، وفيها يتدارسون الخطوات التالية ، و يضعون الخطط التي في ضوئها يتصرفون لانجاح أهدافهم وتحقيقها ، وهي في الواقع جلسات سرية خطرة جدا تتخذ فيها قرارات حاسمة

لمستقبل الحركة ولايجوز لأحد غير الامام وكبار المشايخ حضورها(١) .

٣ ــ لقاءات سرّية أقل خطرا من السابقة . والغاية منها انتقاء نخبة صالحة من الدعاة لإرسالها إلى مختلف الأقطار الإسلامية للدعوة إلى المذهب الأباضي ، وفي هذه اللقاءات يتلقى المرشحون مهمة أصول الدعوة ، وتعاليمها وخططها وغاياتها والدافع إليها مباشرة من فم الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة .

وكانوا يدرسون أحوال المبعوثين ، ثم أحوال أهل البلاد التي كانوا سيذهبون إليها سياسيا واجتماعيا ، وكانوا دوما يفضلون أن يكون الدعاة من أهل البلاد نفسها لأنهم أعرف بأحوال مجتمعهم وأقدر بالنفوذ إلى دواخل نفوس أهلهم ، وأعلم بخفايا الأمور فيها ، وأقدر على التعامل معهم عن الأجنبي الطارىء الذي يلقى دوما التحفّظ من أهل البلاد الأصليين .

فبالاضافة إلى هذه السياسة التنظيمية للحركة الأباضية الناجحة فإنه قد استطاع أبو عبيدة ان يخلق من الأباضيين جماعة متآلفة ومتضامنة شديدة التآزر والتآخي . وخلق فيهم إحساسا متبادلا بالتعاطف والتراحم ، مما جعلهم عبارة عن أسرة واحدة كبيرة ، ونجح أيضا في جعل الأغنياء من الأباضيين عونا ثابتا للفقراء كي لا تضطر الحاجة للفقراء إلى طلب العون خارج حظيرة التنظيم ، مما ينذر بتسرب المعلومات خارج الحركة .

فعلى الرغم من أن أبا عبيدة كان يقيم في البصرة ــ مركز الدعوة ــ فانه كان على اتصال دائم بالجماعات الأخرى من الأباضيين في سائر الأقطار الإسلامية ، وكان يعرف مايجري فيها عن طريق مراسلات بالغة الحيطة من السرّية ، وكان يتعهد الدعاة منهم بالمال اللازم ليستطيعوا الاستمرار في الدعوة صامدين . وأنشأ لذلك بيت مال خاص لامداد الدعاة والمحتاجين من الأباضية في المناطق القاصية ، وكانت المصادر المالية للحركة هي التبرعات من الأباضيين المتحمسين للدعوة والمخلصين لها ، ومن ضرائب معينة فرضها الإمام على طبقة معينة من الأغنياء الأباضيين .

---

(١) نشأة الحركة الأباضية ، الباب السادس ، ص : ١٠٣ ، وما جاء فيه من المراجع .

والحق أن أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي هو الذي استطاع بذكائه بعث نسمة الحياة الخالدة في جسم الحركة الأباضية وتعهد نبتتها الأول بالماء والمناخ اللازمين ، حتى غدت الحركة شجرة تصمد أمام العواصف من الرياح والنوائب الى أن أثمرت وأعطت أكلها .

سبق في صفحات سابقة أن قلنا ان المذهب الأباضي لم ينتشر في العالم الإسلامي لموقفه المتشدد عن الحكام و بالتالي موقف الحكام تجاهه . ولكونه أيضا ليس مجرد مذهب فقهي فحسب وانما هو مذهب له رأيه الخاص في شأن الخليفة والخلافة وله موقفه أيضا في سياسة الحكم ، ولم يكف اتباعه قط عن محاولة إقامة حكم إسلامي طبق الكتاب والسنة ، ولم يتردد زعماؤه يوما عن الخروج مقاومين السلطة الحاكمة . وذلك لان نشأة هذا المذهب نشأة مختلفة اختلافا مطلقا عن نشأة باقي المذاهب الإسلامية .

فمنذ أن انفصل المحكمة من صف الإمام علي نتيجة قبوله التحكيم وحتى موقعة النهروان ، ثم تكون الخوارج كفرقة أو جماعة مستقلة ترفض الحكم العلوي والأموي معا . ثم بعد سقوط حكم الإمام علي وتنازل الإمام حسن رضي الله عنه لمعاوية ، لم يتغير موقف الخوارج بل استمروا في حربهم مع الدولة الأموية جهرة إلى ان سقطت هذه الدولة ورغم ان الخوارج الغلاة قد انقرضوا وانمحوا من الوجود فان الأباضية قد بقيت ، فالأباضية وان كانت ترفض وصفها خارجية إلا أنها كانت فرعا من فروع الخوارج وانشقت عنهم(٥) ؛ وأصبحت معتدلة ، بل وأصبحت ثمة عداوة بين الأباضية والخوارج الغلاة كالتي بين الغلاة من الخوارج و بين السلطة الحاكمة . غير أن اعتدال الأباضية شفع لهم عند السلاطين ، لقد ظل السلاطين ينظرون إلى الأباضية نظرتهم إلى الخوارج بصرف النظر عن الاعتدال وعدمه . والحق أن الأباضية رغم الاعتدال ، فإن نظرتهم إلى الحكم الظالم كنظرة الغلاة من الخوارج إليه . وبما أن الخوارج والأباضية لا يرون حصر الخلافة في يد قبيلة واحدة ، كما مر معنا في حوار مع مفتي سلطنة عمان ــ علما بأن الدولتين الأموية والعباسية كانتا ذواتي نظام أسرى ــ لذا ظل كل منهما ينظر إلى الأباضية ــ رغم الاعتدال ــ على أنها غير معترف بها ، ولا مرضي عنها . فأحكموا عليها الخناق ، وضيقوا عليها السبل ، وكانتا تعلمان ان الاختلاف بين الخوارج والأباضية اختلاف ليس حول الاعتراف بصحة ملك الأمويين والعباسيين إسلاميا ، اذا

غالباً باضية ــ رغم القعود ــ فانهم كما رأينا كانوا يسعون الى تغيير النظم الحاكمة وتغييرها بأخرى أكثر تمسكا بالكتاب والسنة . والداعي الأ باضي ــ اذاً ــ كان مختلفا عن الداعي المالكي أو الشافعي مثلا ، والأخيران لا خطر منهما لانهما يبثان تعاليم مذهب فقهي وفقط ، في حين ان الاول ــ الاباضي ــ يسعى إلى تقويض دعائم العروش ، أى انه كان داعيا مذهبيا وسياسيا في آن معا إلى انْ أرغمته الظروف بالتخلي عن ذلك الاسلوب . ومع ذلك فان الأ باضيين اليوم يوجدون في أماكن إسلامية كثيرة وفي مقدمتها سلطنة عمان حيث المذهب الأ باضي هو المذهب الرسمي هناك . و يوجدون أيضا في ليبيا ، وكذا في تونس والجزائر ــ في وادي ميزاب ــ ولا يستبعد أن يكون للمذهب الأ باضي أتباع في شرقي أفريقيا حيث خضعت هذه المناطق الافريقية للنفوذ العماني زمنا طويلا (٥) .

فالاعتبارات السياسية والتاريخية التي ذكرناها حالت دون انتشار المذهب الأ باضي في العالم الإسلامي مثل انتشار باقي المذاهب الأخرى .

ونظرا للأهمية التاريخية لكتاب عبدالله بن أباض ، زعيم الأ باضية إلى الخليفة الأموي فاننا نلحقه بهذا الكتاب . فالقارىء لهذه الرسالة يستطيع تصور لون التفكير الذي كان يشغل هذا القائد و يستطيع القارىء أيضا من لهجة الرسالة أن يعرف و يستشف ما إذا كانت الحركة حركة كانت تسعى لأجل غايات دنيوية سياسية أو لأجل تطبيق شريعة الله على الأ رض ، أم ماذا كانوا سعون وراءه . والحق أن الرسالة خلاصة للمبادىء الأ باضية والغايات التي كانوا يسعون الى تحقيقها ورأيهم في الاحداث التي حدثت .

والرسالة نقلناها من كتاب (العقود الفضية في الاصول الاباضية للحارثي) . وللقارىء أن يقارنها بما جاء في نشأة الحركة الاباضية للدكتور الخليفات ناقلا من الجواهر المنتقاة ، للبرازي . وسواها من المراجع .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، من عبدالله بن أباض إلى عبدالملك بن مروان ، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو ، وأوصيك بتقوى الله ، فان العاقبة للتقوي ، والمرد إلى الله . واعلم أنه انما يتقبل الله من المتقين ، أما بعد جاءني كتابك مع سنان بن عاصم ، وانك كتبت إليّ أن أكتب

إليك بكتاب ، فكتبت به إليك فمنه ماتعرف ، ومنه ماتنكر ، زعمت انما عرفت منه ، ماذكرت به من كتاب الله ، وحافظت عليه من طاعة الله ، واتباع أمره ، وسنة نبيه . وأما الذي أنكرت منه فهو عند الله غير منكر ، وأما ماذكرت من عثمان والذي عرضت به من شأن الأئمة ، فان الله ليس ينكر على أحد شهادته في كتابه ماأنزله على رسوله ، انه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون والكافرون والفاسقون . ثم اني لم أذكر لك شيئا من شأن عثمان ، والأئمة إلا والله يعلمه انه الحق ، وسأنزع لك من ذلك البينة من كتاب الله الذي أنزله على رسوله ، وسأكتب لك في الذي كتبت به وأخبرك من خبر عثمان ، والذي طعنا عليه فيه ، وأبين شأنه والذي أتى عثمان . لقد كان ماذكرت من قدم في الإسلام ، وعمل به ، ولكن الله لم يجر العباد من الفتنة والرد عن الإسلام . وان الله بعث محمدا بالحق صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الكتاب فيه بينات كل شيء يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه هدى ورحمة لقوم يوقنون . فأحل الله في كتابه حلالا ، وحرم حراما ، وفرض فيه فرائض ، وحكم فيه حكما ــ وفصل بين قضائه و بين حدوده ، وقال تلك حدود الله فلا تقربوها ، وقال ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . وأقسم ربنا قسما ، وليس لعباده فيه الخيرة ، ثم أمر نبيه باتباع كتابه ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم ، «اتبع ماأوحي اليك من ربك» ، وقال «فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه» . فعمل محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه ، ومعه عثمان ، ومن شاء الله من أصحابه ، لا يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعدى حدا ، ولا يبدل فريضة ولا حكما ، ولا يستحل شيئا حرمه الله ، ولا يحرم شيئا أحله الله ، ولا يحكم بين الناس إلا بما أنزل الله ، وكان يقول اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، فعمّر صلى الله عليه ماشاء الله تابعا لما أمر الله يبلغ ماجاءه من الله والمؤمنون معه يعلمهم و ينظرون الى عمله حتى توفاه الله عليه الصلاة والسلام وهم عنه راضون ، فنسأل الله سبيله وعملا بسنته ، ثم أورث الله عباده الكتاب الذي جاء به محمد وهداه ولا يهتدي من اهتدى من الناس بتركه . ثم قام من بعده أبوبكر على الناس فأخذ بكتاب الله وعمل بسنة نبيه ولم يفارقه أحد من المسلمين ، ولم يعب عليه أحد في حكم حكمه ولا في قسم قسمه حتى فارق الدنيا ، وأهل الاسلام عنه راضون ، وله مجامعون ، ثم قام من بعده

عمر بن الخطاب قويا في الأمر، شديدا على أهل النفاق، يهتدي بمن كان قبله من المؤمنين، يحكم بكتاب الله، وابتلاه الله بفتوح من الدنيا مالم يبتل بها صاحبيه وفارق الدنيا والدين ظاهر، وكلمة الاسلام جامعة، وشهادتهم قائمة، والمؤمنون شهداء الله في الأرض. كذلك قال الله تعالى «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا». و بعد موته تشاور المؤمنون، فولوا عثمان، فعمل ماشاء الله بما يعرف أهل الاسلام، حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض ماشاء الله، ثم أحدث أمورا لم يعمل بها صاحباه قبله، وعهد الناس يومئذ بنبيهم حديث، فلما رأى المؤمنون ما أحدث، أتوه، فكلموه، وذكّروه بكتاب الله وسنة من كان قبله من المؤمنين، وقال الله «ومن أظلم ممن ذكر بآياته ربه ثم أعرض عنها، انا من المجرمين منتقمون». فسفه عليهم أن ذكروه بآيات الله، وأخذهم بالجبروت، وظلم منهم من شاء الله، وسجن من شاء الله منهم، ونفاهم في أطراف الأرض نفيا، واني أبين لك ياعبدالملك بن مروان الذي أنكر المؤمنون على عثمان، وفارقناه عليه فيما استحل من المعاصي، عسى أن تكون جاهلا عنه غافلا، وأنت على دينه وهواه، لا يحملنّك ياعبدالملك هوى عثمان أن تجحد بآيات الله وتكذّب بها، فان عثمان لا يغني عنك من الله شيئا، فالله الله عبدالملك بن مروان قبل التناوش من مكان بعيد، وقبل أن يكون لزاما وأجلا مسمى، وانه كان مما طعن المؤمنون عليه، وفارقوه، وفارقنا فيه، ان الله قال «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم في الدنيا خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم». فكان عثمان أول من منع مساجد الله أن يقضى فيها بكتاب الله، ومما نقمناه عليه وفارقناه عليه ان الله قال لمحمد صلى الله عليه سلم «لا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيىء، وما من حسابك عليهم من شيىء فتطردهم، فتكون من الظالمين». فكان أول رجل من هذه الامة طردهم ونفاهم، وكان ممن نفاهم من المدينة أبوذر الغفاري، ومسلم الجهني، ونافع بن الحطام، ونفى من الكوفة كعب بن ابي الحنكة الى الرجان(١) وجندب بن زهير. وجندب هو الذي قتل الساحر

(١) في ابن الاثير نفاه من الكوفة الى الشام.

الذي كان يلعب به الوليد بن عقبة ، ونفى عمر بن زرارة وزيد بن صوحان وأسود بن فرج و يزيد بن قيس الهمداني وكردوس بن الحضرمي في اناس كثيرين من أهل الكوفة ونفى من أهل البصرة عامر بن عبدالله القمري ومذور العنبري ولا استطيع لك عدّ من نفاهم من المؤمنين . ومما نقمنا عليه أنه أمّر أخاه الوليد بن عقبة على المؤمنين ، وكان يلعب بالسحرة و يصلي بالناس سكران ، فاسقا في دين الله ، أمره من أجل قرابته على المؤمنين المهاجرين والأنصار ، وانما عهدهم حديث بعهد الله ورسوله والمؤمنين . ومما نقمنا عليه تأميره قرابته على عباد الله وجعل المال دولة بين الاغنياء ، وقال الله «كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم» ، و بدل كلام الله ، و بدل القول ، واتبع الهوى . ومما نقمنا عليه أنه انطلق الى الأرض يحميها لنفسه وأهله حمى ، حتى منع قطر السماء والرزق الذي أنزله الله لعباده لأنفسهم ولانعامهم ، وقد قال الله «قل أرأيتم ما أنزال الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل الله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة» . ومما نقمنا عليه انه أول من تعدى في الصدقات وقد قال الله «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم» . وقال الله «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا» . الذي أحدثه عثمان منعه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ، وأنقص أصحاب بدر ألفا ألفا من عطاياهم ، وكنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله وقال الله «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله» إلى قوله «فذوقوا ماكنتم تكنزون» . ومما نقمنا عليه أنه كان يضم كل ضالة الى أبله ، ولا يردها ولا يعرّفها ، وكان يأخذها من الابل والغنم اذا وجدها عند أحد من الناس وان كانوا قد أسلموا عليها وكان لهم في حكم الله ان لهم ما أسلموا عليه وقال «ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين» .

وقال «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما

فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا» . ومما نقمنا عليه أنه أخذ خمس الله لنفسه و يعطيه أقاربه ويجعل منهم عمالا على أصحابه وكان ذلك تبديلا لفرائض الله وقد فرض الله الخمس لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . قال : «ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير» . ومما نقمنا عليه أنه منع أهل البحرين وأهل عمان أن يبيعوا شيئا من طعامهم حتى يباع طعام الامارة ، وكان ذلك تحرما لما أحل الله : «وأحل الله البيع وحرم الربا» . فلو أردنا أن نخبر كثيرا من مظالم عثمان لم نحصها إلا ماشاء الله ، وكل ماعددت عليك من عمل عثمان يكفر الرجل أن يعمل(١) ببعض هذا وكان من عمل عثمان انه كان يحكم بغير ما أنزل الله وخالف سنة نبي الله والخليفتين الصالحين أبي بكر وعمر ، وقال : قال الله «ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا» . وقال : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون» . وقال : «ألا لعنة الله على الظالمين» ، «ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا» . وقال «لا ينال عهدي الظالمين» . وقال «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وقال «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» . وقال «وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون» . كل هذه الآيات والله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا . وقال «فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون»» . فلما رأى المؤمنون الذي به عثمان من معصية الله تبرأوا منه ، والمؤمنون شهداء الله ناظرون في أعمال الناس . وكذلك قال الله : «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» . وترك خصومة المخصمين في الحق والباطل ، وأوقع ما أوعده الله من الفتن ، وقال الله : «الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ، وهم لا يفتنون ،

---

(١) روى في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فهو يشير الى الحديث والآية التي احتج بها قبل ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» . فعلم المؤمنون ان طاعة عثمان على ذلك طاعة ابليس ، فساروا إلى عثمان من أطراف الأرض واجتمعوا من ملأ من المهاجرين والأنصار وعامة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتوه فذكروه الله وأخبره الذي أتى من معاصي الله فزعم انه يعرف الذي يقولون ، وانه يتوب إلى الله و يراجع الحق ، فقبلوا منه الذي أتاهم به من اعتراف بالذنب والتوبة والرجوع إلى أمر الله ، فجامعوه وقبلوا منه وكان حقا على أهل الإسلام إذا أتوا بالحق أن يقبلوه ، ويجامعوه ما استقام على الحق ، فلما تفرق الناس على ما أنقاهم به من الحق نكث عن الذي عاهدهم عليه وعاد فيما تاب عنه فكتب في أدبارهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه العهد الذي عاهدهم عليه رجعوا فقتلوه بحكم الله ، وقال الله «وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون» . فجامع أهل الاسلام ماشاء الله وعمل بالحق ، وقد يعمل الإنسان بالإسلام زمانا ، ثم يرتد عنه . وقال الله «ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم» ، فلما استحلوا معصية الله وترك سنة من كان قبله من المؤمنين ، علم المؤمنون ان الجهاد في سبيل الله أولى وان الطاعة في مجاهدة عثمان على أحكامه . فهذا من خبر عثمان والذي فارقناه فيه ، وطعن عليه المؤمنون قبلنا ، وذكرت انه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وختنه ، فقد كان علي بن أبي طالب أقرب إلى رسول الله ، وأحب اليه منه ، وكان ختنه ، ومن أهل الإسلام ، وأنت تشهد عليه بذلك ، وأنا بعد على ذلك ، فكيف تكون قرابته من محمد صلى الله عليه وسلم نجاة اذا ترك الحق ، وتعاطى كفرا ؟ واعلم انما علامة كفر هذه ــ الامة ــ كفرها بالحكم بغير ماأنزل الله فأولئك هم الكافرون ، فلا أصدق من الله قيلا وقال : «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون» . فلا يغرنك ياعبدالملك بن مروان عثمان عن نفسك ، ولا تسند دينك إلى رجال يتمنون و يريدون و يستدرجون من حيث لا يعلمون ، فان أملك الأعمال خواتمها ، وكتاب الله جديد ينطق بالحق ، أجارنا الله باتباعه ان نضل أو نبغي ، فاعتصم بالله ، وانه من يعتصم بالله يهده صراطا مستقيما . وكتاب الله هو الحبل الذي أمر المؤمنين ان يعتصموا به ولا

يتفرقوا ، وليس حبل الرجال من انهم ينهبون و يطعنون فاذكرك الله لما ان تدبرت القرآن ، فانه حق ، وقال الله : «أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها» ، فكن تابعا لما جاء من الله به تهتدي ، و به تخاصم من خاصمك من الناس ، واليه تُدعو وبه تحتج ، فانه من يكن القرآن حجته به يخاصم من خاصمه ، و يفلح في الدنيا والآخرة ، فان الناس قد اختصموا وهم يوم القيامة عند ربهم يختصمون ، فتعمل لما بعد الموت ولا يغرنك بالله الغرور .

وأما قولك في شأن معاوية بن سفيان أن الله قام معه وعجل نصره ، وأفلح حجته في الدنيا والآخرة ، وأظهره على عدوه بطلب دم عثمان ، فان ، كان يعتبر الدين من جهة الدولة أن يظهر الناس بعضهم على بعض في الدنيا فانا لا نعتبر الدين بالدولة ، فقد ظهر المسلمون على الكفار لينظر كيف يعملون ، وقد ظهر الكفار على المسلمين ليبلوا المسلمين بذلك و يكون عقابا على الكافرين وقال : «وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا» . فان كان الدين اذا ظهر الناس بعضهم على بعض ، فقد سمعت الذي أصاب المشركون من المسلمين يوم أحد ، وقد ظهر الذين قتلوا ابن عفان عليه ، وعلى شيعته يوم الدار ــ وظهروا أيضا على أهل البصرة وهم شيعة عثمان ، وظهر المختار علي ابن زياد وأصحابه وهم شيعتهم ، وظهر مصعب الخبيث على المختار وظهر ابن السجف على أخنس بن دجلة ، وأصحابه ، وظهر أهل الشام على أهل المدينة ، وظهر ابن الزبير على أهل الشام بمكة يوم استفتحوا منها ماحرم الله عليكم وهم شيعتكم ، فان كان هؤلاء على الدين فلا يعتبر الدين من قبل الدولة ، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض ، و يعطي الله رجلا كافرا ملكا في الدنيا ، فقد أعطى فرعون ملكا ظهر في الأرض ، وقد أعطى الذي حاج إبراهيم في ربه . ثم ان معاوية انما اشترى الامارة من الحسن بن علي ، ثم لم يف له بالذي عاهده عليه ، قال الله «أوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ماتفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من امة انما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون» . فلا تسأل عن معاوية ولا عن عمله ولا عن صنيعه ، غير انا قد أدركناه ، ورأينا عمله وسيرته في الناس ، ولا نعلم أحدا أترك للقسمة التي قسم الله ، ولا لحكم حكمه الله ، ولا

أسفك لدم حرام منه . فلو لم يصب من الدماء إلا دم ابن سمية ، لكان في ذلك ما يكفره(١) . ثم استخلف ابنه يزيد فاسقا من الناس لعينا يشرب الخمر المكفر ، فيكفيه من السوء ، وكان يتبع هواه بغير هدى من الله ، وقال الله : «ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين» . فلا يخفى عمل معاوية و يزيد على كل ذي عقل من الناس ، فاتق الله ياعبدالملك ، ولا تخادع نفسك في معاوية ، فقد ادركنا أهل بيتكم يطعنون في معاوية و يزيد ، و يعيبون عليهما كثيرا مما يصنعان . فمن يتول عثمان ومن معه فأنا ــ نشهد الله وملائكته وكتبه ورسله بأنا منهم برآء ولهم أعداء بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا ، نعيش على ذلك ماعشنا ونموت عليه اذا متنا ، ونبعث عليه اذا بعثنا ، نحاسب بذلك عند الله(٢) . وكتبت اليّ تحذرني الغلو في الدين ، واني أعوذ بالله من الغلو في الدين ، وسأبين لك ما الغلو في الدين اذا جهلته ، فانه ما كان يقال على الله غير الحق ، و يعمل بغير كتابه الذي بين لنا ، وسنة نبيه التي سن . وقال الله تعالى : «ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق» ، كما فعل عثمان ، والائمة من بعده ، وأنت على طاعتهم ، وتجامعهم على معصية الله ، وتتبعهم وقد اتبعوا أهواءهم ، واتبعتهم أنت عليها ، وقال الله عزّ وجلّ : «لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل» ، فهؤلاء أهل الغلو في الدين ، فليس منهم من دعا الى الله والى كتابه ، ورضي وغضب لله حين عصى أمره ، وأخذ بحكمه حين ضيع ، وتركت سنة نبيه ، وكتبت اليّ تعرض بالخوارج ، تزعم أنهم يغلون في دينهم و يفارقون أهل الاسلام ، وتزعم انهم يتبعون غير سبيل المؤمنين وانني أبين لك سبيلهم ، انهم أصحاب عثمان الذين انكروا عليه ما أحدث من تغيير السنة ، وفارقوه حين أحدث وترك حكم الله وفارقوه حين عصى ربه ، وهم أصحاب علي بن أبي طالب حتى حكم عمرو بن العاص ، وترك حكم الله وانكروه عليه وفارقوه فيه ، وأبوا ان يقروا الحكم لبشر دون حكم كتاب الله ، وأنكروه عليه وفارقوه فيه ، فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة ، كانوا يتولون في دينهم وسنتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر بن الخطاب ، و يدعون

---

(٢) قال نور الدين السالمي وما مضى قبلك لو بساعة ، فدعه ، ليس البحث عنه طاعة . ومن رأى أبي عبيدة الكف عن فتن الصحابة وللأوائل أفوالهم وأعمالهم التي شاهدوها وحكموا فيها ، انما هم صحابة وتابعون ونحن نسمع ونكف ولا نصوب باطلا ولا نبطل حقا ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون .

إلى سبيلهم ، و يرضون بسنتهم ، على ذلك كانوا يخرجون واليه يدعون وعليه يتفارقون ، وقد علم من عرفهم من الناس ورأى من علمهم انهم كانوا أحسن الناس عملا ، وأشد قتالا في سبيل الله ، وقال الله : «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين» . فهذا خبر الخوارج . نشهد الله والملائكة انا لمن عاداهم أعداء ، وانا لمن والاهم أولياء بأيدينا والسنتنا وقلوبنا ، على ذلك نعيش ماعشنا ، ونموت على ذلك اذا متنا ، غير انا نبرأ الى الله من ابن الازرق وأتباعه من الناس ، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الاسلام فيما ظهر ، ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد ايمانهم ، فنبرأ الى الله منهم . أما بعد فانك كتبت الىّ أن اكتب بجواب كتابك ، واجتهد لك في النصيحة ، وأني ابين لك فاني قد بينت لك بجهد ، واخبرتك خبر الامة ، وكان حقا عليّ ان أنصح لك ، وأبين لك ماقد علمت . ان الله يقول : «ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا و بينوا ، فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم» . فان الله لم يتخذني عبدا لاكفر به ، ولا أخادع الناس بشيء ليس في نفسي ، وأخالف الى ما نهى عنه . أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لتحلوا حلاله ، وتحرموا حرامه ، ولترضوا بحكمه ، وتنيبوا الى ربكم ، وتراجعوا كتاب الله . وأدعوكم الى كتاب الله ، ليحكم بيني و بينكم في الذي اختلفنا فيه ، ونحرم ما حرم الله . ، ونقسم بما قسم الله ، ونحكم بما حكم الله ، ونبرأ ممن برىء الله منه ورسوله ، ونتولى من تولاه الله ، ونطيع من أحل لنا طاعته في كتابه ونعصي من أمر الله بمعصيته ان نطيعه . فهذا الذي أدركنا عليه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وان هذه الامة لم تحرم حراما ، ولم تسفك دما إلا حين تركوا كتاب ربهم

الذي أمرهم ان يعتصموا به ، و يؤمنوا به ، وانهم لا يزالون مفترقين مختلفين حتى يراجعوا كتاب الله وسنة نبيه ، و ينصحوا كتاب الله على انفسهم ، ويحكموه الى ما اختلفوا فيه ، فان الله يقول : «وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ، ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب» . وان هذا هو السبيل الواضح لا يشبه به شيء من السبل وهو الذي هدى الله من قبلنا محمدا صلى الله عليه وسلم والخليفتين الصالحين من بعده ، فلا يضل من اتبعه ، ولا يهتدي من تركه . وقال : «وان هذا صراطي مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون» . واحذر ان تفرق بكم السبل عن سبيله ، و يزين لك الضلالة باتباعك هواك فيما جمعت اليه الرجال فانهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، انما هي الأهواء ، انما يتبع الناس في الدنيا والآخرة إمامين : إمام هدى ، وإمام ضلالة ، أما إمام هدى فهو يحكم بما أنزل الله ، و يقسم بقسمته ، و يتبع كتاب الله ، وهم الذين قال الله فيهم : «وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون» . وهؤلاء أولياء المؤمنين الذين أمر الله بطاعتهم ، ونهى عن معصيتهم . وأما امام الضلالة ، فهو الذي يحكم بغير ماأنزل الله ، و يقسم بغير ماقسم الله ، و يتبع هواه بغير سنة من الله ، فذلك كفر ، كما سمى الله ، ونهى عن طاعتهم وأمر بجهادهم ، وقال : «ولا تطعهم وجاهدهم به جهادا كبيرا» ، فانه حق أنزله بالحق ، و ينطق به ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، فانا تصرفون . ولا تضربن الذكر عنك صفحا ، ولا تشكن في كتاب الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فانه من لم ينفعه كتاب الله ، لم ينفعه غيره . وكتبت اليّ أن أكتب اليك بمرجوع كتابك ، فاني قد كتبت اليك وأنا اذكرك بالله العظيم لما قرأت كتابي ، وتدبرته ، واكتب اليّ ان استطعت بجواب كتابي ، اذ كتبت إليك بما اتنازع فيه أنا وأنت ، انزع عليه بينة من كتاب الله ، اصدق فيه قولك ، فلا تعرض لي بالدنيا ، فاني لا رغبة لي في الدنيا ، وليس من حاجتي ، ولكن لتكن نصيحتك لي في الدين ولما بعد

الموت ، فان ذلك أفضل النصيحة ، فان الله قادر أن يجمع بيننا وبينك على الطاعة ، فانه لا خير فيمن لم يكن على طاعة الله . وبالله التوفيق ، وفيه الرضى ، والسلام عليك(١) .

يخرج القارىء لهذه الرسالة بعدّة أمور منها :

١ ــ انها رد أو تلبية لطلب من عبدالملك . وواضح في اسلوبها ان الرجلين كانا متعارفين . وان رسائل شبيهة كان قد جرى تبادلها بينهما قبل التي وصلته بواسطة «عاصم» . وأسلوب الرسالة أيضا يشير بأن عبدالله بن أباض لم يعترف بعبدالملك أميرا للمؤمنين وكان يدعوه باسمه مجردا من أي لقب وكأنه أحد من الناس العاديين .

٢ ــ ان الرسالة لخصت موقف عبدالله بن أباض والذين معه تجاه عثمان ومعاوية وباقي ملوك بني أمية بوضوح وصراحة لا لف فيه ولا دوران ولا الرموز .

٣ ــ دعم ابن أباض حججه بالقرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وأعمال الخليفتين أبي بكر وعمر .. ثم سرد الوقائع واستدل بالأحداث .

٤ ــ ان الرسالة امتازت بالاضافة الى الصراحة المطلقة ــ بالجرأة في قول الحق وقوة الحجة . ورصانة الدليل وبطقية البرهان .

ولم يترك لعبد الملك عناء الاجتهاد والتصور عن الامور التي انكرها القوم على عثمان . لقد بين جزأ منها لعبدالملك وذكر منها :

أ ولا ــ احداثه أمورا منكرة ومبتدعة في الاسلام كعدم الرجوع الى كبار الصحابة واستشارتهم في قضايا الدولة العامة والتعدي على الناس والتعامل معهم بالقهر والجبروت .

ثانيا ــ طرده رجالا من الصحابة الذين هم ممن شاركوا في تدشين اللّبنة الأولى من صرح الاسلام . واثبات دعائمه بايمانهم وبظبا سيوفهم .

ثالثا ــ اتخاذه أقرباءه بطانة له ومشاورين . وولاّهم المناصب العالية ، وهم في حقيقتهم مابين طليق ودخيل في الاسلام لا يد له فيه ولا سابقة ، في حين

---

(١) العقود الفضية في الاصول الاباضية ص ١٣٢ طبعة دار اليقظة العربية في سوريا ولبنان .

بقى جند الله الذين بقوائم سيوفهم وقوة ايمانهم حل الايمان محلّ الكفر وتوطد ركن الاسلام بقى هؤلاء في الحاشية يتجرّعون كؤوس الحسرة والحزن بما يرونه يجري من حولهم .

رابعا ــ تحويله الأراضي والممتلكات العامة أملاكا شبه شخصية له ولذويه من أقربائه يتصرفون عليه كيف يشاءون منحا ومنعا خلافا للقواعد المتعارفة وخلافا لسيرة الخليفتين من قبله وغدا غلمان أميّة يتصرّفون كما لو كان (الامر) ملك يدهم ولا يحق لأحد أن ينازعهم فيه .

خامسا ــ ضمّ عثمان كلّ سائمة شردت ضالة وعثر عليها عن طريق الصدقة الى أمواله الخاصة بدون ردّ أو تعريف .

سادسا ــ منع بعض المقاطعات الاسلامية على التصرف في أموالها بيعا وشراء تحت حرية تجارية كاملة . في حين أطلق العنان لبعض الولايات بدون مسوغ مما الحق الضرر بالمسلمين .

سابعا ــ تضافر جملة من التجاوزات أدى الى احداث فتن في دولة الاسلام وهي الفتن التي نالت اذيتها عثمان نفسه .

الأ باضية إحدى المذاهب الإسلامية العريقة وان لم ينل شهرة باقي المذاهب . ينسب المذهب الأ باضي الى التّابعي عبدالله بن أباض فيقال لهم : الاباضييون : كما ينسب اتباع المذهب المالكي الى مالك و يقال لهم : المالكيون ــ غير ان الامام الفعلي للاباضية هو التابعيّ الكبير والمحدث المعروف جابربن زيد الازدي البصري (وهو عماني) .

وعن شيء من عدم : التبيّن : نسبوا الى الخوارج . ولكن قراءة دقيقة في التاريخ الاباضي من شأنها ان تخرج الانسان من هذا المفهوم وتصحّح كثيرا من المعلومات ولكنها قراءة يجب ان تكون دقيقة وعميقة ومن كتب القوم .

لقد سعينا كثيرا في دراساتنا هذه إلى إلقاء ضوء حول هذه المسألة وناقشنا الآراء الواردة فيها وادلينا دلونا مع الدلاء وسنترك الحكم للقارىء وله ــ حسب اقتناعاته ــ ان يخالفنا أو يوافقنا .

لم نركز في دراستنا هذه للأ باضية على المسائل الفقهية ــ وتلك مهمة دارسي الفقه المقارن . غير اني على يقين بأن الدارس للفقه الاباضي بعد مقارنته بفقه غيرهم سوف لايخرج وفي جعبته كمية هائلة وخطيرة من الاختلاف بين هذا الفقه وفقه المذاهب الاسلامية الاخرى . وان وجد اختلاف فانه اختلاف كالذي بين المذاهب الأ ربعة السنية .

ان هذا الكتاب سوف يعطي القارىء قاعدة سليمة أو قل مدخلا جيدا . أو قل منطلقا حسنا نحو دراسة عميقة حول هذا الموضوع . وفكرة عامة نقية عن نشوء وتطور الحركة الاباضية . ذلك لأن الكتاب اعتمد فيما اعتمد عليه قبل كلّ شيء على المراجع الاباضية وأقوال علمائهم .

بيد ان هذا لا يعني انني قبلت كل مابلغني عنهم من مؤيدي وجهة نظرهم أو سلمت بصحة كل ماسمعته منهم أو قرأته لهم . فثمة آراء قابلة للنقاش ناقشتها و بينت وجهة نظري فيها . ولكني دوما حاولت الانصاف والابتعاد عن التحامل

بدون مبرر فأسوأ أنواع التحامل ماجاء وليد الجهل أو الحقد الدفين واني أعيذني منهما .

على انني اجتهدت طاقتي لأعكس آراءهم سالمة . ولذلك لم اعتمد ــ إلا ماندر ــ على آراء غيرهم عنهم انصافا للعلم وايمانا بأن البقاء للحق والعاقبة للحقائق الصادقة .

ولا يعنني موقفي هذا ان كلّ ماجاء فيه من تقرير يلقي رضا من الاباضيين أو موافقة منهم بمجمله وعلاته . وهو شيء فوق المستطاع .

قد يجد القارىء أمثلة ضربتها لاستشهاد تاريخي أو كمقارنة للوقائع تسايرا مع الفلسفة القائلة (التاريخ يعيد نفسه) . والحق ان الأحداث في تكرر مستمر مع اختلاف في العصر والزمان . ولكن الحصيف يحسها هي هي فالحياة مسرحية والاحياء أبطالها .

فالقارىء لهذا الكتاب سيجد اننا لسنا من دعاة (الطائفية) في الاسلام ولا من مشجعي الخلافات بين أبنائه وان وقع شيء يشبه ذلك فالقلم هو المسئول لا الفؤاد .

وختاما : ليس لي من رجاء إلا أن أكون قد ساهمت قدر استطاعتي في اضافة شيء ــ وان هزيلا ــ الى المكتبة الإسلامية (من جاد بما في اليد لا يعد بخيلا) .

وأطلب من القارىء ان يدعو لي بحسن الخاتمة أنا وسائر المسلمين .. والسلام عليكم ورحمة الله و بركاته .

عمر محمد صالح

ملاحظات مقدم الكتاب

ص ٢٢ (*) :

من المعروف والثابت ان الإمام عبدالله بن أباض هو تلميذ للإمام جابر بن زيد وليس استاذا له ، وقد كان عبدالله بن أباض لا يخرج عن رأي الامام جابر بن زيد .

ص ٣٠ (*) :

ليس هناك في المسألة تفضيل ، وانما هو مايمليه الواقع التاريخي ، فالأسباب التالية توضح الحقيقة :

١ ــ أن الإمام جابرا استاذ للإمام عبدالله بن أباض .

٢ ــ أن عبدالله بن أباض كان يصدر في أفعاله عن رأي الإمام جابر بن زيد .

٣ ــ أن المذهب الأباضي كغيره من المذاهب الإسلامية لابد أن يقوم على مبادىء وآراء في العقيدة والفقة وأمور الحكم مستندة على نصوص صريحة أو مستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

فكان الإمام جابر هو فارس الميدان والمبرز في ذلك ، وهذا عين ماقرره المؤلف نفسه عندما قال :

(وبما ان العلم والسياسة اذا اجتمعا فان العلم يعلو ولا يعلى عليه الخ) .

٤ ــ أن المذهب الأباضي كغيره من المذاهب الاسلامية قائم على العلم بأصول الاسلام فكان «علم الإمام جابر هو الرافد لبذور الفكر الأباضي لينمو على ضوئه» .

٥ ــ لهذه الأسباب يقول الأباضية أن الإمام جابر بن زيد هو الإمام الحقيقي للمذهب الأباضي من حيث تعظيمهم للعلم ولعلمهم بأن المذاهب الإسلامية كلها مبنية على آراء واجتهادات الفقهاء ، وان كان المذهب الأباضي بجانب كونه مذهبا فقهيا فهو ذو طابع سياسي .

ولم يشمئز الأباضية يوما ما من الانتساب إلى عبدالله بن أباض وأقروا هذه التسمية على أنفسهم وان كانت صادرة من مخالفيهم .

ص ٣٢ (*) :

هذا رأي المؤلف نفسه والحقيقة غير ذلك ، فان الذي بلور مفهوم الحركة الأباضية هو الامام جابر بن زيد ، وتؤكد المصادر الأباضية ان عبدالله بن أباض كان من تلامذة جابر وكان لا يصدر إلا عن رأيه . ومن يدري ؟ لعل مسيره الى الحجاز للدفاع عن مكة المكرمة كان بايحاء من شيخه جابر ؟

لقد كان جابر في هذه الفترة في مستوى من العمر يؤهله قياديا ، فهو قد ولد سنة ١٨ هجرية بالاضافة إلى ماوهبه الله من نبوغ فكري وسعة وتبحر في العلم .

ص ٣٣ (*) :

هذا رأي خاص بالمؤلف ، والقرائن تؤيد غير ذلك . وقد تقدم الكلام على هذا .

ص ٣٤ (*) :

ما ساقه المؤلف هو مجرد افتراضات لا تستند على حقائق تاريخية وهو تكلف بعيد .

ص ٣٦ (*) :

هذه العبارة انبهمت على كثير من غير الاباضية وهي بحاجة الى توضيح ، وقد حضرت يوما من الأيام مناقشة رسالة ماجستير في جامعة الازهر وكان مؤلف الرسالة قد ذكر ان الامام جابر بن زيد كان يخفي معتقده . فهب بعض الدكاترة المناقشين قائلا : لماذا يخفي معتقده ؟ وهل يجوز له أن يخفي معتقده ؟ اذا كان الأمر كذلك فان معتقده فاسد .

وهم بهذا يظنون ان جابرا يخفي معتقده الذي يتصل بأمور العقيدة كالاعتقاد في ذات الله وصفاته وما هو من قبيل ذلك .

والحقيقة ان المقصود من العبارة هو المعتقد السياسي الداعي الى معارضة الحكم الأموي وعدم شرعيته .

فكان الامام جابر لا يجهر بمعارضة الحكم الأموي ، ولا يدعو الى ذلك علنا ،

وانما كان يملي ذلك على اتباعه فقط . لأنه ليست لديه القدرة على إعلان معارضة الأمويين الذين عرفوا بالبطش الشنيع بمعارضيهم .

ولم يكن ليغيب عن بال الامام جابر ان هناك من عارض الأمويين ، فما كان مصيرهم إلا الموت ، وما كان مصير دعواتهم إلا التلاشي ، فكان على الامام جابر — وهو امام دعوة ومؤسس مذهب فكري — ان يتبع اسلوبا تنظيميا دقيقا وان يتخذ منهجا متميزا لتكوين جماعة تحمل رسالة الاسلام النقية الصافية عبر التاريخ وتستطيع يوما من الايام ان تقيم دولة الاسلام اسما ومعنى .

وقد تحقق ذلك في عهد تلميذه ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة حيث قامت دول للأباضية في اليمن وعمان وشمال افريقيا ، اتخذت كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم منهج حكم وادارة ، وتنفست الأمة تحت حكمهم الصعداء في ظلال الأمن والحرية والعدالة ، واثبتوا للامة وللتاريخ عدالة الاسلام ونزاهته ، وانتشرت الأباضية شرقا وغربا — راجع كتاب (نشأة الحركة الأباضية) للدكتور عوض خليفات ، وكتاب (الحركة الأباضية في المشرق العربي) للسيد طالب مهدي هاشم .

ص ٣٧ (*) :

التقية عند الأباضية جائزة وليست واجبة وفرق بين الواجب والجواز شرعا وانما لم يجيزوها للأنبياء فقط لأنهم حملة رسالات وعليهم تبليغها للناس . والدليل على ذلك ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «رفع عن امتي الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» .

وفي قصة عمار بن ياسر أثناء تعذيبه بمكة المكرمة دليل على ذلك .

ص ٣٨ (*) :

أرى أن المؤلف اطلق هذا القول جزافا فهو قد بنى رأيه على سبق الحركة الأباضية عن الامام جابر . والواقع التاريخي يثبت أن الحركة الأباضية مبنية على أفكار الإمام جابر .

ص ٣٩ (*) :

يقول الأباضية بهذا القول من باب المجاورة الاستاذية أو التاريخية ــ ان جاز التعبير ــ لأن جابرا أكثر ملازمة لابن عباس رضي الله عنهما . وان كان جابر قد أخذ عن كثير من الضحابة أيضا ، لكنه كان أكثر أخذا للعلم عن ابن عباس . الأمر الذي كان انعكاسا على أقوال المذهب الأباضي فيما بعد .

ص ٣٩ (*) :

لم تكن هذه التسمية معروفة في ذلك الوقت ، وانما كانوا يعرفون بأهل الدعوة أو جماعة المسلمين أو أهل الاستقامة لذلك لم يعرف جابر بذلك ، و بطبيعة الحال فان الامام جابراً لم يجذ الانتساب الى الأشخاص سواء الانتساب اليه أو الى غيره وانما حرص على ان يبقى المسلم مرتبطا بالإسلام اسما ومعنى .

ص ٣٩ (*) :

هذا في اصطلاح علماء الحديث ، وهو اصطلاح اطاره المذاهب الأربعة فقط لأنهم يرون ان المعارضين للأمويين والعباسيين هم من أهل الأهواء أو البدع والضلالة ، وهو اصطلاح سقيم وسخيف وكان الأجدر ان يوصف بالهوى والضلالة الذين يتهافتون على موائد بني أمية و بني العباس ويمالئونهم على ظلمهم .

ص ٤٢ (*) :

ما ذكره المؤلف وساقه مقارنة بأحداث ايران ، مقارنة غير سائغة ، وهو مما افرزته السياسة الحديثة ليس إلاّ ، ولم يكن هذا الاسلوب معروفا أو متبعا عند الأمويين ، فكم أورد الأمويون الموت من هو أضعف شأنا من عبدالله بن أباض ومن هو أقوى شأنا منه ، ولم يراعوا في ذلك الجانب الذي ذكره المؤلف . فهل يكون هذا الحظ السعيد قاصرا على عبدالله بن أباض فقط ؟

ولكن هناك أسبابا جعلها عبدالله بن أباض في سلامة من بطش بني أمية :

١ ــ عدم لجوئه الى استعمال القوة .

٢ ــ استناده الى قبيلته الكبيرة عددا .

٣ ــ اشتغال الأمويين بمحاربة الخوارج واطفاء الثورات الأخرى .

ص ٤٦ (*) :

في هذا الفصل اضطرب المؤلف ايما اضطراب ، وقد غاب عنه ان التسمية بالأباضية لم يطلقها الأباضية على أنفسهم ، وانما سماهم بذلك مخالفوهم ، يقول الامام السالمي :

ان المخالفين قد سمونا بذاك غير اننا رضينا

ولم تظهر لفظة الأباضية في مؤلفاتهم إلا في أواخر القرن الثالث الهجري .

يقول الدكتور عوض خليفات في كتابه (نشأة الحركة الأباضية) بعد بحث جيد واستقصاء دقيق (وقد ظهر ــ أي اسم الأباضية ــ لأول مرة في المؤلفات الأباضية المغربية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري) .

وقال (ولكن يبدو أنهم مع مرور الزمن واصرار مخالفيهم على تسميتهم بهذا الاسم قد قبلوا به وخاصة انهم لم يجدوا فيه مايؤذيهم أو يسيء الى سمعتهم) .

ص ٦٩ (*) :

يرى الأباضية ان الخوارج هم الأزارقة والنجدية والصفرية الذين انشقوا عن المحكمة وخرجوا بآراء تخالف مبادىء المحكمة .

فالخوارج (الأزارقة والنجدات والصفرية) قالوا بتشريك مخالفيهم من المسلمين وأحلوا سفك دمائهم وغنيمة أموالهم وسبي ذريتهم الى غير ذلك من مبادئهم وهذه الآراء تتنافى مع مبادىء وآراء المحكمة التي لم تشذ قيد شعره عن تعاليم الاسلام الحنيف . انظر سلوك الامام ابي بلال المرداس بن حدير رضي الله عنه ومن قبله ، لهذه الأسباب اعتبر الأباضية الفرق المذكورة خوارج لخروجهم عن مبادىء المحكمة القومة التي حافظ عليها الأباضية ، وبذلك قلت في مقدمتي للكتيب

(الفرق بين الأباضية والخوارج) بأن المحكمة هم سلف للأباضية وليسوا سلفا للخوارج ، وهذا نابع من وجهة نظر الأباضية وهو الحق ان شاء الله .

ص ١٠٦ (*) :

من المعروف ان الامام جابر بن زيد التقى بالصحابة بادىء ذي بدء في المدينة المنوره حرسها الله ، ومن هناك حمل عنهم العلم وربما تكرر لقاؤه ببعض الصحابة في البصرة وفي غيرها من الأمصار.

ص ١١٤ (*) :

تقدم القول بأن الأزارقة والنجدية والصفرية هم الذين انشقوا عن المحكمة لاتخاذهم آراء منافية لأصول الاسلام سبق ذكرها .

وبقى الأباضية هم الذين يمثلون المبادىء التي كانت عليها المحكمة ولم يكن هناك قاسم مشترك بين الأباضية والخوارج إلا انكار التحكيم بين علي ومعاوية .

ص ١١٥ (*) :

نعم يوجد الى يومنا هذا الأباضية منتشرين في معظم أقطار الشرق الافريقي .

أحمد بن سعود السيابي

المحـــــتوى

رقم	الموضـــــوع	رقم الصفحة
١	الإهـــــداء	٢
٢	تقـــــديم	٣
٣	تصـــــدير	٦
٤	كلمـــة الإفتتـــاح	١٥
٥	عبد الله بن أباض والأباضية	١٩
٦	الأباضـــــية كمذهب	٢٦
٧	نظرة شخصية في نسب الأباضية	٣٠
٨	تنـــــاقض	٤٤
٩	الأباضية في أقلام كتاب المقالات	٤٧
١٠	الأباضـــــية تتحـــــدى	٥٧
١١	هل الأباضـــية خوارج ؟	٦٤
١٢	مـــع الخـــوارج	٧٩
١٣	معتقـــدات الأباضـــية	٨٨
١٤	الأباضية تقول عن نفسها	٩١
١٥	من أوائل قادة الفكر الأباضي ..... جابر بن زيد الأسدي	١٠٦
١٦	أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي	١٠٩
١٧	المذهب الأباضي في العالم الإسلامي	١١٤
١٨	الخـــــاتمة	١٢٧
١٩	ملاحظـــات مقـــدم الكتاب	١٢٩